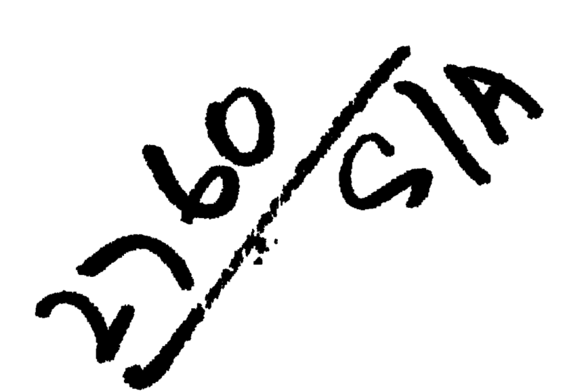


المكتبة الاهلية في بيروت

سيف الدولة

رواية تاريخية غرامية

جرت وقائعها في عهد الامير سيف الدولة بن حمدان
صاحب حلب

تأليف

الكاتب المستشرق الافرنسي المعروف
اندره دافنس

27605
ع/٨

تعريب

اسكندر رياشي : صاحب جريدة « الصحافي التائه »

مطبعة المصباح * بيروت ١٣٤٨ هـ ١٩٣٠ م

كلمتان

لم يحمل سيد الرمح مثله ، ولم يخلق الله
كالبراق . اجمل خيول نجد
« اندره دايفنس »

هذه سيرة ابي الحسن سيف الدولة ممدوح المتنبي ، جاء بها مستشرق افرنسي ، فكان اميناً على الحقيقة التاريخية ، والاسماء العربية لابناء المضارب ، فعربت كتابه حرفاً حرفاً ، وكنت اميناً في التعريب ، كما كان المؤلف اميناً في التاريخ ، وأدهشني غرام سيف ببلتذا ، وغرام بلتذا بسيف الدولة . فوضعت في تعريب مشاهد ذاك الغرام الشعري الشديد ، ما وضعه المؤلف من عبارات الاعجاب والوصف المستكمل

فاذا اردت ايها الصديق ان تتعرف الى مجد عربي خالد ، والى امير فاق بسطوته وظرفه وادبه كل امير ، والى مليكة فاقت بغرامها وجمالها ونبالتها كل النساء ، فاقرأ حكاية سيف الدولة امير حلب وملك سوريا

« المعرب »

من هو سيف الدولة ؟

ولد سنة ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م ، وتوفي سنة ٣٥٦ هـ — ٩٦٦ م

هو ابو الحسن علي بن ابي الهيجاء الملقب بسيف الدولة ، مؤسس دولة بني حمدان ، التي دامت في الموصل ، ونصيبين ، وانطاكية ، وديار بكر ، وحلب ، ودمشق من سنة ٢٩٣ هـ ـ ٩٠٥ م الى سنة ٤٠٢ هـ ـ ١٠١١ م

كان فارساً مغواراً ، وقائداً محنكاً ، وشاعراً بليغاً ، ونقاداً محققاً ، حتى قيل انه لم يجتمع بباب احد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر

وقد اشتهر بغزواته الكثيرة ، واعماله الحربية العظيمة ، وابلاءه في الاعداء وخصوصاً الروم ، حتى دوّن له التاريخ وقائع مجيدة وحوادث هائلة ، لايزول ذكرها على الدهر ، حتى انهم جمعوا من الغبار الذي كان يلصق بثيابه في حروبه لبنة

بقدر الكف ، واوصى ان يوضع خده عليها في لحده ، فنفذت وصيته ، ولله در المتنبي الشاعر المشهور حيث قال فيه :

ان كان قد ملك القلوب فانه
ملك الزمان بأرضه وسمائهِ

الشمسُ من حسادهِ والنصرُ من
قرنائه ، والسيف من اسمائه

أين الثلاثة من ثلاث خلاله :
من حسنه وإبائه وقضائه

مضت الدهور وما اتينَ بمثله
ولقد أتى ، فعجزن عن نظرائه

صبوة ابي الحسن

كلب راكض، خير من اسد رابض
(مثل عربي)

ما من شيء في الكون يا اميري الجميـل يفتن النساء كحكايات الحب والحرب، وقد ذكرت الان حكاية عجيبة ساحرة تذهب عنك الضجر، فاسمع حكاية حياة سيف الدولة الذى كان اميراً على حلب، التي لا شبيه لها ؛ فلم يعش رجل بنبالته بين الاسلام ودعاة النبي « صلى الله عليه وسلم »

وُلد في الموصل حيث كان والده الملقب بالخليفة المقتدر حاكما فدعي ابو الحسن

وهو متحدر من اسرة حمدان، وهو وحده في مجده استطاع ان يزيد امجاد اجداده العظام، وقد حيته عند ولادته البشائر السعيدة التي تلقاها الناس بفرح وسرور، ويقولون انه عندما وضعته امه ورأى النور تغنت العصافير في الدوحة اغاني «جديدة» وكان اول صوت سمعته اذناه زقزقة البلابل

وعندما ابتدأ بالمشي عرف الناس انه سيكون الاكثر جمالا بين ابناء حمدان، وكان وجهه يبتسم كما يبتسم الياسمين

في الربيع وبرقت عيناه بنور النجوم ، وامتلأ قلب والدته انتعاشاً وكانت ابتسامته تتفتح على الناس كما تتفتح براعيم الازهار عند الصباح

وكان ذكاؤه حاداً ومستغرباً ، لهذا وضعه والده بين ايدي حكماء الموصل العظماء ، الذين لقنوه العلوم والشعر ، وكان يريد ان يجعله عالماً يفوق جميع علماء بلاطه ، انما الله وحده يعرف ما يعرف . وماقدر يكون !!

واخذ ابو الحسن يخجل بارتجالياته ـ وهو لايزال في الحداثة ـ اكثر الشعراء فناً ورقة ، ومع انه كان متعشقاً لنفحات الشعر فانه كان ايضاً يرى نفسه مجتذباً نحو العاب اكثر رجولية من هذه

ففي الصيد والمصارعة ولعب الرماح كان دوماً الاول ينتصر على جميع الذين يجارونه وهم من عمره

ويحب الخيول المطهمة التي يشبه ذيلها الذي ذهبته الشموس دروعاً لماعة.

ويلذ له تربية الصقر والباز كما يلذ للحبيبة وصال حبيبها

وعندما يطارد في الرمال الفريسة التي تجري امامه ضارباً بفخذيه القويتين متن مركوبه السريع يشعر بنشوة تطير به في الفضاء فينسى العالم وما فيه

وكم كان مرآه جميلا عند المساء وهو راجع على رأس

رجاله الى المدينة وقدارتدى اجمل واغى و ثمن الملابس وتدلت الطيور والغزلان التي اصطادها على سروج الخيول

فكانت عندئذ تقف الفتيات الا كثر نفوراً على اعتاب بيوتهن ويرفعن عيونهن اليه فترد د خدودهن الزنبقية دماً من حمرة الخجل واللذة

فانه كان يزرع في طريقه عطور الشهوات وخيالات الاحلام

وقد عرف الخليفة المقتدر ان ولده خلق للحب وللحرب فكان سعيداً لان له هذا الولد

اما عند المساء بعد ان يسدل الليل ستائره المنعشة على العالمين كان ابو الحسن يذهب وحده الى الحدائق الغناء فيهيم بين الاريج الكثيف المتصاعد من الزهور الناعسة بالقرب من البحيرات حيث تتغنى « الفوارات » والعيون

وهنالك كان ينصت لانشودة الارض الهادئة وينظم الشعر

ولكن الفجر كان يجده دوماً على صهوة جواده يجري على رأس رجاله مالئاً الفضاء من هتافاته قافزاً في الهواء النقي المنعش وتائها في صبوته وقوته وغنياً في جماله ، ونبيلا في هيئته وفتاناً في ملاحة وجهه وجسمه حتى انه كان يخيل لتجار القوافل في الصحراء عند رؤيته انه الملاك جبريل يسير

على رأس طغمة من ملائكته

وحصل غزو في ذلك الزمن على بعض القبائل المعادية ، التي كانت تعيث على طرقات الصحراء فساداً وتجبي فدية عن القوافل دون ان تحترم حجاج بيت الله الحرام

ولما عرف ابو الحسن بجلية الامر ذهب لابيه وقال له :

ـ يامولاي « كلب يركض خير من اسد رابض » فاني اريد الذهاب للحرب فقد اختنقت في المدينة وانا احب الصحراء وان ابيت الليالي في ظلال الخيام ، واسكر من ضجيج الرماح وقرقعة نعال الخيول ، وانا عطشان للهواء الطلق وللمعارك الدامية .

فنظر الحاكم الشيخ الى ولده باعتزاز ولكن قليلاً من الكآبة لامست صوته عندما قال له :

ـ اذهب ياولدي وليحفظك الرحمن واحرص جيداً ان تكذب على دم اجدادك ، فسارسلك غداً لاخيك وهو يقودك للغزو

فوضع ابو الحسن ركبته على الارض وقبل ثوب والده واعترته موجة من الفرح كادت تطير به ، وأحس كأن سوطاً دامياً يجرح صدره وعندما وقف ظن ان العالم ملك له ودخلت افراح فردوس المؤمنين باجمعها الى قلبه

فقضى يومه بطوله قافزاً ضاحكاً راكضاً كغزال طليق

في فضاء الله

وذهب لاصدقائه فاعلمهم بامره السامي ، واخبر به كل من رآه في سبيله من العبيد للبنات لتجار الاسواق لضباط القصر ، وقد كان فرحه عظيما حتى انــه عند المساء نسي « صليحة» الجميلة التي احبها بين النساء والتي بكت طويلا عندما عرفت انه مسافر في الغد

وقد تفتحت يومذاك امامه ابواب حياته الحقيقية ، فقد اوشك ان يسير على طريق المجد

وقاده ولده في اليوم الثاني الى اخيه ناصر الذي كان يستعد للقيام بغزو جديد ، وكان هذا يفوق سيفاً بخمس عشرة سنة من العمر ، وقد ذاعت شهرة بطولته بين القبائل وخافه الناس .

ولما اعلمه والده بجلية أمر اخيه ابي الحسن هز رأسه استخفافاً وقال :

— هل تعلم يا ابا الحسن اننا سنخاطر بالحياة ونجتاز الصحراء ذات الرمال المتحركة ؟ هل تعرف ان من الواجب علينا السهر ليلا ونهاراً خوفاً من الاعداء ومن الوحوش ، واننا سنلقي عذاب العطش ونصوم اكثر من صــوم رمضان وربما متنا جوعاً ؟ وهــل تعرف ان اعداءنا هم فوارس يرعبون ، وابطال محتالون يخرجون فجأة من الارض فينصبون

الاشراك ويعذبون الاسرى ؟

فاجاب ابو الحسن ــ اعرف كل ذلك وانا اعيش منذ زمن طويل بعيداً عن المعارك ". اخي ناصر انا تبع لك وطائع لارادتك كاحد الرعايا البسطاء وانا حاذق بضرب الرماح " ولا يرعبني زئير الاسود

فقال ناصر ــ ليكن ما تريد يااخي " وليتم المقدر عليك

فاحنى ابو الحسن رأسه امام الامير ناصر وذهب الى دار الاسلحة حيث لبس قميصاً من الفولاذ مغطاة من الخارج بقماش ناعم من الحرير وتمنطق بخنجر يلمع كالبرق وبسيف محدودب صقيل ، وتقبع بخوذة وضاحة وارتدى برنساً ابيض كثلج الجبل

وقاده والده بعد ذلك الى اسطبلاته فانتقى حصاناً هو اجمل خيول نجد مسرجاً بالحرير والفضة " فركبه وطاف المدينة من اولها لآخرها ذاهباً للسلام على والدته التي استقبلته بافتخار وحزن " وقبلته طويلا وهي تمسك عبراتها ومن بعد ذلك وضعته تحت حماية الله القدير

ولكن لا ترتجفي ايتها الام الحزينة ولا تخافي فان ولدك ابا الحسن لا يطير من بين ذراعيك الا ليضمه المجد بين ذراعيه المعطرين

وفي صباح ذات يوم "عند ابتسامة الصباح " وتحت رعاية

اخيه ناصر مشى ابو الحسن الى الصحراء يحيط به رهط من كبار القواد ، على محياهم سمات الشرف والنبل والبطولة

ووقف اهالي الموصل على طريق الامير وهو يسير في طليعة رجاله يتأملون بصبوته وجماله الفتان ويطلبون له السعادة والحياة الطويلة

ولم يكذب ابو الحسن على دم اجداده ، فقد كان في المعارك الاولى التي اثارها ما يجب ان يكون ، شجاعاً حتى الجنون و كريماً حتى منتهى الكرم

احاط الاعداء فسقى رمال الصحراء من دمائهم ، ولم تعرف يده التعب وهي حاملة سيفه الصقيل اللماع

وعندما يأتي الليل ، لم يكن على وجه البسيطة وامام نجوم السماء رجل يسهر على جنده ويحرسهم ويرقب اعدائهم مثل ابي الحسن

فابتدع الحيل للحرب ، وفي كل يوم كان يستيقظ في وسط الرجال اشد بأساً واكثر حذاقة من الامس ، وكان اخوه ناصر يشعر ان قلبه يمتلئ فرحاً واعتزازاً لمرأى اخيه شجاعاً وسيداً في فن الحروب - مع حداثة سنه

وعندما رجع سيف الى الموصل عرف الناس ان الله اعطى بطلا جديداً للاسلام ، لا يقل بأساً وقوة عن ابطاله السالفين . وابتدأ ابو الحسن منذ ذاك اليوم يزداد منعة وفخراً

وانتصارات ، فاصبح اسمه رعباً وهولا للنهابين وقطاع السبل في الصحراء

ولم تجر موقعة كبيرة ولم يقع غزو معروف الا وكان الامير سيف على رأسها وهو عربون الانتصار

ولم يكن في شؤون الحب والغرام اقل نشاطاً وهمة مما هو في الحرب والصدام ، وكثيراً ما كانت الاسيرات اللواتي كان يكسبهن بغزواته يخرجن من بين ذراعيه ناسيات الاسر والاستعباد وسعيدات فرحات

وكان كذلك بعد المعارك يرتاح لقصص الشعراء ومستظرفات الادباء

وكان بين موقعتين عندما تقف قرقعة السيوف والرماح يتمدد بكل رخاء على فراش من الارجوان الناعم فيسكر من نغمات الاعواد واغاني الراقصات الفاتنات ، وترنيمات القصائد والاناشيد

وهكذا كان ابو الحسن بن حمدان يزهو يوماً عن آخر في فنون الحرب والغرام والشعر

٢
حلب الشهباء

قال لي المجد (لا تستطيع ان تتلكني الا اذا امتلكت العالم) « قول اعرابي »

وحملت الافواه صيت ابا الحسن من مكان الى مكان بعيداً جداً عن الموصل ، وقد اتصل بالخليفة خبر اعماله الباسلة بقيادة اخيه ناصر فطلبه هذا الى بلاطه ، فسار البطل الفتى صبيحة ذات يوم جميل الى بغداد الحرة ذات القبب الوردية فاستقبله فيها اهل البلاط بشرف كبير واقام له الامراء الافراح والاعياد ولم يكن ابو الحسن قد رأى قبل ذلك عظمة كمثل عظمة بغداد من قصور شاهقة مزخرفة وميادين شاسعة مزركشة وقاعات من الارجوان الاحمر والمرمر بلون الثلج فرشت في ارضها السجادات الفاخرة وازدانت نوافذها وموائدها بالآنية الذهبية والفضية المحلاة باللآلىء والجواهر واستضاءت سقوفها بالانوار الساطعة العديدة كأنها الوف والوف النجوم ونزلت على ابوابها الستائر التي رسم عليها المصورون حكايات الحروب واعمال البطولة ومشاهد الحب والغرام

وقد انشدت في اواسطها النوافير اغاني المياه السامية وتقطرت منها الحبات كأنها عقود لؤلؤة ، جاعلة حولها محيطاً

ورطبا سكوتا يدعو للشعر والوصال .

فاعجب ابو الحسن بما رأى واقسم وهو في وسط كل هذه العجائب يتأمل بها انه سيملك القوة والثروة ليعيش كما يعيش الخليفة في بغداد وبقصر فخم كقصره وفي اعياد عظيمة مستديمة ملأى من الغرائب ترقص فيها عاريات اجمل بنات حواء من عصافير الجنة وحورياتها

واعطاه الخليفة قيادة احد جيوشه ، فخافه الناس وعاش في قصر امير المؤمنين معززا مكرما يطيعه الناس عند اقل اشارة منه واهدى اليه رجال البلاط فرقة من عبيد افريقيا تخدمه وتقدم له في كؤوس البلور الصافي المشروبات النادرة وعلى صحون من الذهب الخالص الاثمار المكللة بالثلج

وجاءوه بنساء فتيات جميلات وفاتنات ليغسلن جسمه بالند والاقحوان ، وليلبسنه الحرائر الناعمة التي كانت القوافل تأتي بها من الشام وبعلبك والبصرة ، وليدلكن منكبيه وفخذيه وردفيه وظهره بايديهن البلورية اللؤلوية ذات الاصابع المخضبة بالحناء ، وليرقصن امامه عاريات راقصات تهتز بها اجسادهن الناصعة البياض كما يهتز العصفور بلله القطر

ومع ذلك فانه لم يكن يسترسل كثيراً الملذات عندما يشعر ان هنالك خطراً يهدد المملكة فكان يقوم كالمجنون فيسرع على رأس جيشه الى الاعداء فيذبحهم ويجعلهم طعمة

لوحوش الفلاة ويرجع حاملا اعلام النصر كما ترجع الاشجار الى ازدهارها فى فصل الازهار ..

ففي كل يوم كان يزداد حب الرعية له ، لجماله الفتان ولبطولته النادرة ولذكائه المفرط

ومع ذلك فانه كان يتاسف — وهو في كل هذه العظمة علي فراق اخيه ناصر الذي كان يجله ويحترمه

ونظر الخليفة الى اعمال ابي الحسن العظيمة فجعله اميراً على واسط ، ومن ثم بعد اعمال اعظم جعلته محترماً عند امير المؤمنين عينه حاكماً علي ديار بكر حيث اظهر حكمة ادارية عالية وحيث حارب الاعجام فتغلب عليهم وجعلهم يخشون سطوته

وكان يسير من ظفر الى ظفر يحيط برأسه اكليل من شعاع الشمس ، واجدا اينما حل صداقات امينة واعداء اشداء للتغلب عليهم

واخيراً جعله الخليفة حاكما علي (ميافارقين) حيث ينام اجداده العظام في مدافنهم بكل جلال وابهة ، وكان يومئذ قد ناهز السابعة والعشرين من عمره ، وقد بلغ من الشهرة شأواً بعيداً فتحدث به الركبان واحترمه الناس اكثر من احترامهم لمشايخ الدين والعلم

ومع كل ما وصل اليه من العظمة والجاه فانه كان يحلم ايضاً باكثر واسمى من ذلك ، فهو يحب الاستقلال والمعيشة

الحرة الطليقة في وسط الصحراء حيث لم يكن له خصوم الا الاسود ، وكثيرا ما كان يشعر وهو في قصره بيافارقين بثقل سيطرة الخليفة عليه ، فكان يتمنى ان يكون عنده مملكة هو وحده اميرها

مملكة يفتتحها بسيفه المنتصر لانه كان من الذين لا يستطيع احد في العالم مهما كان عظيما ان يتسيطر عليه

وقدضجر من معيشة البلاط الملكية والاميرية وكان يتمنى ان يحارب بذاته؛ وان يكون له غير ارادته الخاصة جاعلا لبلاده ممتلكات جديدة وذلك تحت سنابك خيله وبقوة ساعده

وهو يقول « لا تزال اراض واسعة في العالم يلزم امتلاكها »

وكان محاطاً بعدد عديد من الفوارس الشجعان ، الذين لا يقفون عند شيء في سبيل تحقيق اماني سيدهم ، الذي كان يقول بنفسه دائما « لماذا لا اسير عند الصباح العذب وانا عطشان للاعمال العظيمة فامتلك البرين »

وكان يردد بكل تؤدة وحب وهو بالقرب من الينابيع العذبة قول الشاعر القائل :

« جبت العالم على حصاني المطهم ، زارعا في كل مكان الرعب والخوف ، وقطعت الانهر والجبال للقتل والكسب واللذة »

وكان هذا الاسد قد ضجر من معيشة التمدد على الاطالس بين عشرات الجواري الفاتنات ، ولم يكن ينتظر للوثوب

غير الفرصة المناسبة فيقوم الى الصحراء مفتشاً عـن فرسته مسمعاً السماء زئير غضبه

وكانت خيوله السوداء كالليل تضرب بحوافرها ارض مرابطها فتحفرها وقد صدأت اسلحته في متونها

ـ قم الى الحرب ياامير الفتيان وشيخ شبابهم ، قم الى النصر ، الا تشعر ان الارض تضيق بك

ونادى يوماً فوارسه وقال لهم :

« الم تتعبوا بعد من الاعياد والنساء ؟ ؟ »

انتم خاقتم للمعارك بين الرمال الارجوانية ، ولافتتاح البلدان الجديدة ، لا للتمدد تحت اقدام الجميلات ؟

« الا تأسفون وانتم سكارى مـن عطر النساء على فقدانكم نور الشمس المحرقة ، وانتم اولاد البادية التائهون في بلاد الله ،

« جميع القبب واطئة تحت رؤوسكم ما عدا قبة السماء ، وجميع السجادات متراخية على اقدامكم ماعدا رمال الصحراء

انتم خلقتم لتعيشوا بين عواصف الغبار حيثما يكـون كل منكم جسماً واحداً مع حصانه

فتذكروا نشوة الحرب والابتسامة الصفراء على ثغر العدو المضرج بدمائه ، ورائحة دماء الكفار العذبة للشم

تذكروا معاركنا في الصحراء والجبال وجنون خيولنا في

للامصار .

نحن ننام اليوم ايها الرفاق بين العطور والازهار

ولكن من يريد ان يتبعني لامتلاك ممالك العالم فليأت سنمشي ونجعل الارض ترتجف تحت سنابك خيولنا ، سنسير في نور الشمس فنمتلك الدساكر والحاضرة والمدن والممالك ونسبي النساء الاكثر جمالا من حوريات الجنان ، فنحملهن وراء ظهورنا على الخيول ونجعل قبلاتنا على ثغورهن اشهى من الدم الذي نسفكه لامتلاكهن

فلنعش احراراً تحت الخيمة التي تحركها الرياح ، من ان نعيش مستعبدين في القصور الشاهقة الفخمة

انني ساجعلكم اقوى من السحرة

اتبعوني واتركوا لغيركم المحافظة على القصور

تعالوا لنمتلك الشمس والقمر »

فاستقبل السامعون كلام اميرهم الجليل بحماس لا مزيد له واعتلى الهتاف وبرقت نصول السيوف فوق الرؤوس - لبيك لبيك - قالوا للامير فنحن طوع يديك

وراحوا بعد ذلك يجوبون المدينة التي ضجت لمرآهم ولقرقعة اسلحتهم وصهيل خيولهم ، حاملين للاهلين من فم الى فم البشرى العظيمة وداعين الشجعان الى الانضمام اليهم لامتلاك الشمس والقمر

فكنت تراهم العين براقة ، والقدم ثابتة والرأس عزيزاً شامخاً ، يقفزون من مكان الى مكان كأنهم من سكان الجن تظهر على ملامحهم دلائل الظفر والانتصار كأنهم حققوا الحلم وامتلكوا ممالك الارض التي وعدهم بها اميرهم الفتان

واصبحوا بعد ثلاثة ايام الوفاوالوفا ، وباجمعم من المفتشين على الحادثات الراغبين بها . صيادي الامل المتعلقين باذياله ، وقد كان فرحهم عظيما بالذهاب للحرب لاكتساح المدن والدساكر تحت قيادة اميرهم الجميل الذي قادهم مراراً قبل ذلك للنصر والكسب

وكان ابو الحسن في خلال ذلك يفكر ، وهو عارف اية حياة وراحة سيترك كيما يتوغل في المجهول وهو عارف ايضاً انه يرمي بنفسه في بحر الصدفة ولكن فرحه عندما يفكر بالكسب والغنيمة ، والمسير حراً طليقاً في الصحراء وبالليالي التي سيقضيها مفترشاً الغبراء وملتحفاً السماء ونجومها كان يقتل فيه التفكير ويجعله يطير بفكره الى المسافات الشاسعة ليمتلكها

انما كان يتساءل اية بلاد يغزو واي قطر يكتسح ؟؟

انما العجم والجزيرة لم يكونا يستفزان اطماعه ، بل كان يتمنى ان ينزل الى الساحل ويتوغل في سورية الغنية حيث المدن المزدهرة ، حمص والشام وحلب التي كانت تبان لناظريه كامرأة فتانة تحمل بين ذراعيها الغرام واللآلى .

كامرأة فتانة تحمل بين ذراعيها الغرام واللآلي·

هي سوريا التي استدعته ، سوريا ذات السهل الفسيح الشاسع التي تحميها جبال لبنان، الجاعلة فكرة امتلاكها مستحيلة

وكانت سوريا يومذاك بين يدي اخشيد مصر الذى كان قد امتلكها تأكراً سلطة الخليفة عليها

وقال الامير سيف بنفسه انه اذا امتلك سوريا وجعلها مملكة مستقلة وهي اغنى الممالك ، ارجع هذه القطعة المفصولة عن بلاد الاسلام ادبياً الى الخليفة امير المؤمنين

وكان في ذلك ايضاً المخاطرة بالموت، فقد ينكسر الامير الفتان في الموقعة الاولى

ولكنه لم يفكر دقيقة بذلك بل ان هاجساً واحداً كان لا يفارقه وهو السير الى الحرب وانقاذ النفس من خمول القصور وعبادة الجميلات ·

ومضى اسبوع كامل على ذلك وتهيأ كل شيء للسير ، فالوف من المحاربين والخيول والجمال والخيم والبغال والاسلحة كانت قد تجمعت في ميافارقين وهي تنتظر يوم الطعان

والنساء الجميلات الصبيات ذوات الاصوات الشجية والعيون الخلابة والذوائب الجميلة ، تجمعن ايضاً ، واستعدين لمرافقة الامير

فانهن كيما يتبعن الامير الفتان لم يفكرن لا بالتعب ولا

بالخطر ولا بحرّ الصحراء ، بل سرن كما اوحت لهن قلوبهن
قلوبهن الرقيقة التي لم تكن تعرف غير الشعر والحب

وذات ليلة طلب الامير قواده وامرهيم ان يكونوا مع الجيش عند الصباح على استعداد للمسير وقال لهم

ـ لنمش على سوريا فنمتلك قوة واقتداراً حلب الشهباء التي يحكمها اخشيد مصر ، فنجعلها عاصمتنا ونجعلها جميلة حتى يتحدث بها الركبان ،

ومشى الفرسان للصحراء والامير في مقدمتهم بعباءته البيضاء وعقاله الابيض ذي الطرات الذهبيه كأنه نجمة تتألق تقود المحاربين الى مقدرات جديدة وسعيدة

وكان راكباً حصاناً مطهما دقيق الخاصرة وعصبي الساق وكانت كل خطوة من هذا الجواد يطأها نحو الصحراء قد اصبحت ملك الامير

وقد تبعته جماهير لا عدد لها اختفت في غيوم كثيفة من الرمال لا يرى منها من وقت لآخر غير بريق اسلحتها الفضية

مشوا لياليأ واياماً دون تعب ولا تذمر ، لا يستريحون على مجاري المياه وينابيع الواحات غير القليل ، ويشرق عليهم كل صباح وهم بين الرمال يكابدون حر الهوجاء وتتقطر من اجسامهم نقاط العرق كأنها من الماء الساخن ، وقد ادمت قلوبهم حرارة الشمس واحرقت اكبادهم عطشاً

ولكن الامل كان يدفع بالاحياء الى الامام ويطير بهم على اجنحته الوردية فيسيرون دوماً الى نحو الافق البعيد

ووصلو اخيراً الى سفح الجبل حيث الرياض والمياه ،ومن ثم بعد ان ارتووا واستراحوا وتسلقوا القمم العالية الى غابات الصنوبر السوداء والسنديان الدائم الاخضرار حيث كانت تجري جداول المياه الفضية العذبة وغسلوا قلوبهم المحترقة بسلسبيلها اللجيني ، واستمعوا خريرها السحري فامتلأت احشائهم برودة وحياة سمح لهم الامير بالراحه فافترشوا العشب وناموا ملء عيونهم في انتظار يوم البطولة القريب

وبعد ذلك بيومين نزلوا السفح المعاكس للجبل حيث كانت تتراءى لهم في الافق البعيد مدينة مزدهرة زاد الطمع في امتلاكها من همتهم وقد بانت لهم مآذنها العالية البيضاء وباسوارها الضخمة كانها « شرشف » كبير من الدنتلا المزركشة ، وما هي الا ساعات حتى وطأت اقدامهم رياض سوريا الجميلة الشمالية

ولما عرف الاهلون بقدوم هذه القبائل المخيفة ارتاعوا في منازلهم واخذ الاخشيد عامل ملك مصر بالاستعداد للدفاع عن حلب الشهباء التي امتلأت من اهل القرى الذين هربوا امام الامير سيف ورجاله فكنت ترى جماهير عديدة منهم تصل الى ابواب المدينة وتقع صرعى من الخوف والتعب ... الاخشيد ذو القلب الحجري بحرق الجثث فكنت ترى ... السماء محرقة من

البشر لا شبيه لها في التاريخ يتصاعد دخانها الاسود مغطياً السماء وكاسفاً النجوم ، فترى الامهات من اعالي الاسوار اطفالهن يحترقون كأنهم تقدمة للخالق

اما المحرر الاعظم الامير الجليل كان يتقدم بسرعة ، وكانت جيوشه قد ازدادت ازدياداً عظيماً مما انضم اليها من القبائل والاهلين الذين سئموا حكم الاخشيد الظالم وقد افتتنوا بجمال الامير الفتى وبطولة رجاله الذين قطعوا الصحراء الجافة بكل صبر وشجاعة

وهكذا وصل الامير سيف علي رأس رجاله على ابواب حلب ، فنزلوا في الارض الخضراء الضاحكة الملأى من العصافير المغردة ، والتي يسير في وسطها نهر قويق العذب بين السادس والخمائل .

وتراءت للامير المدينة بسطوحها المرمرية وقصورها الشاهقة وجوامعها الماطحة السماء المحيطة بقلعتها الضخمة الحمراء التي تشبه تاجاً من الارجوان لهذه المدينة الشهباء

وامر الامير وهو سكران من الفرح بدق الطبول فخفق قلب الاخشيد في صدره روعة وخوفاً

ومضى الليل والعرب نيام ينتظرون ساعة الطعان ، ولكن الامير لم ينم وظل ساهراً في خيمته الارجوانية يدبر الخطط لامتلاك المدينة ، ومن حوله قواده يسدون اليه الاراء الصائبة

لامتلاك المدينة ، ومن حوله قواده يسدون اليه الآراء الصائبة ومنهم من قال بوجوب مهاجمة المدينة ليلاً ، ولكن الامير لم يكن من هذا الرأي وقد قال

ـ الافضل ان نتعرف الى المكان والا وقعنا في احد الاشراك ، لنهاجم المدينة في النهار ولنقاتلها في وجه الشمس العطشى لمرأى الدماء ، ان الاخشيد ورجاله يرتجفون وراء الاسوار من الخوف ، وغداً عند مطلع النهار نحيط المدينة من جميع جهاتها ، وبعد ذلك نحتمع باكثريتنا المطلقة وبسرعة زائدة امام باب الغرب حيث عرفت ان الحامية قليلة منحطة وندخل المدينة على ظهور جيادنا كالصواعق فنملأ شوارع حلب رعباً

وعند الصباح ارسل الامير المنادين ينادون تحت الاسوار هاتفين للاهلين بالامان والحب ، مؤكدين لهم الامانة واحترام منازلهم ونسائهم وان ابا الحسن ما جاء اليهم الا ليحررهم من استعباد الاخشيد ، فمن اراد منهم الانضمام الى العرب فعلى الرحب والسعة وسيعرف الامير كيف يقدر قدر خدماتهم وخضوعهم .

ولما سمع الاهلون هتاف المنادين اطمئنوا على انفسهم وارتاحوا لوعودهم وكثيرون منهم اجتازوا الاسوار وجاؤا للامير يعرضون عليه سيوفهم ورماحهم

وعرف ابوا الحسن منهم مواطن الضعف في عدوه

وحدث ما حدث، وتحققت خطة الامير كما وضعها اثناء الليل في خيمته الارجوانية فتسلق رجاله الاسوار وتجمعوا على باب الغرب فحطموه ودخلوا المدينة على ظهور جيادهم وهتافهم الحربي يملاء الفضاء ويلقي الذعر ، فهرب الاخشيد ورجاله ولم يبق منهم غير القليل من الذين التجأوا الى القلعة الحمراء فارسل الامير من يؤمنهم على حياتهم اذا استسلموا دون دفاع ، فرفضوا ذلك عن كبر وعزة نفس

فعزم الامير على الاقتصاص منهم بالقوة وتركهم اياماً ضمن القلعة دون ان يهاجمهم ولكنهم وجدوا اخيراً ان لا مندوحة من الخروج قوة واقتداراً فتلقاهم الفرسان بالرماح والسيوف حتى افنوهم عن بكرة ابيهم.

وقد اعجب الامير ببسالتهم وامر بدفنهم بكل حفاوة وشرف .

وقام ابو الحسن بوعده فاحترم المنازل والنساء ولم ينهب رجاله غير قصور الاخشيد ودعاته

وكان بعضهم قد سطا على البيوت الآمنة فجازاهم الامير دون رحمة ولا شفقة ، وقد قال لرجاله :

ـ اريد ان اكون السيد المطاع ، فانا لم آت الى هنا كفاتح ظالم بل كامير كريم . لقد وعدتكم بمملكة جميلة ، وها اننا قد امتلكنا اليوم عاصمتها ، ولا تزال امامنا مدن ودساكر

اكافيء الشجعان ، واكره الظلم

وعندئذ اقسم ابناء الصحراء رجال الامير الابطال قائلين :

ـ نقسم بك وبالله ورسوله اننا نتبعك الى اطراف العالم وليحفظك الله ياميرنا النبيل الجميل

٣

مررت مروراً فقط فاذا بالفرسان عندمرآي يقعون صرعى على ارض الصحراء المحرقة (من كتاب الف ليلة وليلة)

ولكن كافور الاخشيد لم ينم على الضيم ، بل سعى بجمع جيوش جديدة لاسترجاع حلب التي طرده الامير منها

وظهرت فرقه ذات صباح حول المدينة وحاصرتها ، وتغلبت مرتين على الا مير ورجاله فطردتهم منها ولـكن هؤلاء كانوا يعيدون الكرة ويرجعون فيدخلون المدينة منتصرين

ولم تقف مطامع سيف بن حمدان عند هـذا الحد ، فانه تقدم رويداً رويداً الى داخلية الواحات فامتلك مـدن سوريا المنيعة كحمص والشام وانطاكية وسيس وعينتاب وغيرها

وعندما كان فرسان ابي الحسن يظهرون في مكان لم يكن الاهلون يجسرون على الدفاع ، لانهم يعرفونهم قساة على اعدائهم كما هم كرماء على اصدقائهم ، فيفضلون الاستسلام لهم

وهكذا بقليل من الزمن اصبح الامير سيد البلاد باجمعها وامتلك كيليكية واخيراً اتسعت ممتلكاته حتى ضفاف الفرات ودفعت له القوافل التي تمر في اراضيه الجزية ، فكانت الثروات تزداد يوماً عن آخر في قصور حلب الشهباء ومن جميع اجناسها من جواهر واطـالس حرائر واقمشة شامية فهي كينابيع لا نهاية لها من الخيرات والجوهرات والمصطنعات الفنية

وابتنى الامير بواسطة الاسرى العديدين على ضفاف نهر قويق قصراً عظيما دعاه بقصر الحلبة فجاء باحذق المهندسين وابرع البنائين وامهر المصورين ، واكثر الفارشين والنجارين والمزينين تصوراً وفناً ،يعتنون ببناء وفرش هذا القصر واغدق عليهم النعم ودعاهم لى حفلاتهِ وولائمه وكان يـأمر فرسانه بتقديم التحية لهم عند مرورهم ويسير فرقاً من الجند امامهم تضرب الطبول ،وامر بان يحترمهم الناس كاحترامهم لاشـد الفرسان شجاعة لانهم وهم من رجال الفنون الجميلة لا يقلون مقاماً عن ابطال الحروب وقواد الجيوش

وعندما فتحت ابواب القصر للمرة الاولى كان ذلـك ابهرار للاعين ، فالابواب كانت من [البرونز] النحاسي نقشت عليها الوف التصاوير المستغربة الجميلة وهي تدور على قواعد من الزجاج حتى لا تأتي بحركة ، وبعد ذلك تظهر لك.

تضرب الطبول ، وامر بان يحترمهم الناس كاحترامهم لاشد الفرسان شجاعة لانهم وهم من رجال الفنون الجميلة لا يقلون مقاماً عن ابطال الحروب وقواد الجيوش

وعندما فتحت ابواب القصر للمرة الاولى كان ذلك ابهار للاعين ، فالابواب كانت من [البرونز] النحاسي نقشت عليها الوف التصاوير المستغربة الجميلة وهي تدور على قواعد من الزجاج حتى لا تأتي بحركة ، وبعد ذلك تظهر لك قاعات متتابعة ملأى بالاعمدة المرمرية المزركشة والموشاة بالذهب والفضة ، وجعل المصورون رسوم الزهور في اواسط القبب العالية ، حيث حفروا بين جهة واخرى آيات من القرآن الشريف باحرف كوفية جميلة وابيات لاكبر رجال الشعر باحرف فارسية فتانة

وكان للقاعة الكبرى خمس قبب بلون اللازورد يحملها ١٤٢ عموداً من المرمر المزركش بالفضة والذهب ، تنيرها الوف من النوافذ الزجاجية الملونة وفي وسط كل عمود خرجت اوان ملأى من النباتات النادرة ، وفي الوسط افريز عظيم من الخشب الابنوس الموشى بالذهب جعل خصيصاً لجلوس الامير ورجاله الاخصاء وحفر عليه رسم الامير منتصراً على الصحراء

وفي البحيرات التي اغتسلت فيها الطيور المطهرة كانت المياه المجلدة تبرد هو جاء الصيف ، وفي كل مكان غطت

السجادات العظيمة الارجوان والرخام في الارض وسترت ستائر عظيمة من الارجوان المزركش الابواب ، وقامت موائد من العاج في وسط القاعات ومن حولها القاعات ومن حولها مقاعدمن الدمقس الغالي

وفي كل زاوية قامت محرقة عالية للبخور والطيب فكان دخانها يعطر الهواء

وجلست في داخل الجدران وراء حاجز شفاف جوقات الموسيقيين تعزف بالناي والعود والقيثارة فيسمع اهل القصر اجمل الموسيقات والاغاني ، وتدخل على انغامها الى القاعات من ابواب سرية اسراب مـن الحوريات العاريات المائقات الجمال فيرقصن رقصات تجلب اللعاب الى الفم وترجع الشيخ الى صباه

وقد جعل الحرم فسيحاً ومتسعاً لسكنى ثلاثمائة امرأة

وان الحمام فقد كان آية في الفن والذوق وكانت المياه تتدفق فيه من فم اثنتي عشره سمكة من الذهب الابرز

وجعلت الاسطبلات ذات المذاود الرخامية لالف جواد وجواد

وقد احاطت بالقصر حدائق غناء ورياض زاهرة نبت فيها الياسمين والزنبق والورود والنرجس واللوتيس

وسارت في مماشيها الاطيار الداجنه النادرة المثال التي جاء

كان العلماء والشعراء يتلقون العلم ، وانشأ المارستانات للمرضى يديرها كبار الاطباء

وكان في وسط هـذه الفخفخة ، وباثناء الاعياد الراقصة والحفلات الساهرة ، لا ينسى وهو يستربح من غزواته الظافرة خدمه الامناء فجميع الذين ماشوه منذ الساعة الاولى كانوا بالقرب منه يحملون اكبر الالقاب ويتسلمون اعظم الوظائف

وكم كان جميلا وعظيما ومحبوباً بين هذه الحاشية المنتقاة كندجا الرفيق السابق ، والامير الطليق اليوم قائده المفضل ، وكالصياد وزيره ، وابي تغلب ابن عمه ، وكرغويه امير حلب وابي القاسم ياوره وحاسم قاضي حلب ، وحسين ومبارك حاملي سيفه ، وبصره السكوت حامل لوائه ، وقواد كتائبه كقمر وفيروز وعبيد وجان شاه وصواب وجعفر وابي بن طاب وابن ايوب وغيرهم ممن اشتهروا بين العرب بالشجاعة والبأس

وليس في العالمين حرم جمع آيات الجمال وحوريات الجنان ممن اتصفن بالملاحة الفتانة ، والقدود الرشيقة والاقدام الدقيقة والمدورات السابية من صبيحة لدليله لزينب لابرنره لزاهية لصليحة وغيرهن اللواتي كن طاقة من البراعيم الحية لازهار ساحرة فاتنة مسكرة

ولم يكن في العالم ندوة كندوة علمائه وسفرائه ممن ملكوا ناصية الادب كما تمتلك الجميلة قلب الشاعر وعلى قمة

هؤلاء جاس المتنبي اشهر الشعراء الذين تعاقبوا على الاعراب منذ الجاهلية حتى اليوم . ومن بعده الزاهي وابو بكر وعبد العزيز وعثمان سعيد وابن لبانة الفيلسوف الكبير ، وابن خلويه الفارسي واضع علم البيان ، وابو فرج النقاد المكنى بالببغاء والفارابي الفيلسوف وغيرهم وغيرهم من امراء الكلام الذين ازدهى عصرهم بادبهم وفاخر بهم اميرهم ملوك الارض وكانوا ينشدونه قصائد خالدة تشبه كل واحدة منها الياذة بكاملها ، جاءت فيها وقائع غرامه وحوادث هيامه ومعارك غزواته وابهة جلاله

والجميع من عساكر وقواد وحكام وشعراء وعلماء وفلاسفة يعيشون في بحبوحة من العيش ، وقد انعم عليهم الامير بالعطايا والهدايا فكان معهم اكرم من حاتم

وكانت سمعة الامير ابي الحسن تزداد يوماً عن آخر ، وقد ذاع صيت اعماله في الخافقين ، ولم يكن احد يجسر على مناوأته والطمع ببلاده ، وخافه الخليفة نفسه وهو عارف ان ابا الحسن درع متين لمملكتهِ ، لذلك كنت تراه يراعي خاطره ويعامله معاملة الند للند

ويوماً وقد جلس الامير على عرشه في قصر الحلبة ، والغانيات عاريات يرقصن امامه والمغنون ينشدون اطايب الاناشيد ، والشعراء يلقون ابلغ القصائد ، دخل عليه قائده

وكانت سمعة الامير ابي الحسن تزداد يوماً عن آخر، وقد ذاع صيت اعماله في الخافقين، ولم يكن احد يجسر على مناوأته والطمع ببلاده، وخافه الخليفة نفسه وهو عارف ان ابا الحسن درع متين لمملكتهِ، لذلك كنت تراه يراعى خاطره ويعامله معاملة الند للند

ويوماً وقد جلس الامير على عرشه في قصر الخلبة، والغانيات عاريات يرقصن امامه والمغنون ينشدون اطايب الاناشيد، والشعراء يلقون ابلغ القصائد، دخل عليه قائده عبيد، فقطب ابو الحسن حاجبيه واشار لعبيد بالانسحاب لكي لايزعجه وهو في انسه، ولكن عبيد لم يطع امر مولاه وتقدم منه واسر اليه بقوله :

«يا اميري ان في بابك رجلاً ووراءه حاشية عديدة وهو رسول امير المؤمنين يحمل اليك سلامه»

فاجاب الامير بعد اكتراث، ضع مائة عبد في خدمته يأخذونه الى الحمام كي يستريح من تعبه، وبعد ذلك ادخله علي

فاجاب عبيد بالسمع والطاعة واخذ الامير يستعد لاستقبال ضيفه، فامر بفرش اجمل سجاجيد بخارى ورش العطر عليها وامر باستحضار اطيب الفاكهة والذ المربيات واعتقل سيفه المرصع بالجواهر والبس عمامته الموشاة بالذهب حيث كانت الماسه كالجوزة تشع في وسطها ورتدى طياسانه الارجواني

الابنوس المرصع بالذهب اخرج منها قفطاناً عجيباً برد كشته ونسجه وما وشي به من اللآلىء وقدمه للامير وقال :

اقبل يامولاي قفطـان الشرف هدية من مولاي لك وعربون حب وسلام ، لقد وصل صيتك الى مسامعه وهو يعرف انك افرس فرسان الاسلام فانت السور الاعلي لسلطنته وقد انعم عليك الخليفة بلقب سيف الدولة

قال هذا وحنى رأسه وقبل رداء الامير الذي ابتسم ابتسامة ساحرة تشبه شعاع الشمس وقال :

قل لسيدك ان معرفة الجميل ولدت في قلبي فانا اقبل بسرور هداياه واقبه وسأرسل له مقابل ذلك مئة عبد وعبد انتقيهم من بين اجمل عبيدي ومئة جواد وجواد تحمل الهدايا ولك صندوقة مثل هذه ملأى بمثاقيل الذهب ، وعشرين عبداً وعشرين جواداً ومن الان حتى يوم رحيلك انت رب الدار لك ما تشاء وتريد فالضيف اذا دخل قصري اصبح السيد المطاع ، والان وقد افرحت قلبي فافرح عينيك واذنيك بما ترى

واشار الامير الى عبيده فجاؤه بالثمار من كل فاكهة زوجان وجاؤوا بالاكواب الذهبية وبعربى الزهر

وجاؤه بالغواني ... يرقصن فتهتز اعطافهن كأن كل واحدة منها قطعة وحدها ، وقد انعكست الانوار المتلألئة على عرياتهن الشفافة فكانت كانها صحيفة ماء تتراءى فيها الخيالات

واقيمت الاعياد عشر ليالٍ وليال ، فاستعظم الرسول مقام الامير ومجده وقال انه والله ند للخليفة

وكان سيف الدولة يفكر ، ويقول بنفسه انه بعد قبوله هدية الخليفة اصبح مربوطاً معه بمعرفة الجميل فلا يستطيع بعد هذا ان يكون السيد المطلق في المدينة التي يحكمها

٤

بيزنطة المدينة التي يحرسها الله

بيت الغريب في ارض الغربة هو كبناية
اساسها من وحل « شاعر جاهلي »

كل امير غير سيف الدولة يرتجف ويرتاع لان العدو الذي يقوم اليوم بوجهه لايشفق ولا يرحم

في ذلك الزمن كانت استنبول الجميلة لم تخضع بعد لشريعة النبي (صلعم) السمحاء

وكانت استنبول التي يسميها الكفار بيزنطة قاعدة لسلطنة عظمى نصرانية قوية ، يقصون عنها العجائب وكانت سلطة امبراطورها تتعدى ما وراء البحار حيث الشعوب العديدة تخضع له كخضوعها لخالقها

وكانت غنية جداً وجيوشه لاتعد ولا تحصى كما هي سحابات الجراد في الجو

وصادف يوماً ان الامير سيف وهو في غزو في صحراء الروم لقي قافلة تسير في القفر تحرسها شراذم من فرسان بيزنطة يقودهم رجل لبس الارجوان والاطالس صغير الجسم بلون اسمر زيتي له عينان تنمان عن الخديعة والذكاء

ولم يستطع البيزانطيون مقاومة فرسان الامير بالرغم عن شجاعتهم فاستسلموا لهم وجيء بقائدهم الامير فقال له:

- من اين آتٍ والى اين انت ذاهب

اجاب القائد مشيراً الى القافلة - ان هذه الجمال آتية من الهند الكبرى وقد كلفت بالمحافظة عليها فهي تحمل لسيدنا باسيليوس الامبراطور الاقمشة النادرة والاطالس العجيبة

قال سيف الدولة - ولكنك تعلم ان كل قافلة تمر في ارضي تدفع لي جزية

اجاب القائد - انا هنا في ارض باسيليوس الذي لا يعرف له سيداً غير الله

قال الامير - هذا لا يهمني . افتح لي هذه الصناديق وهذه الاكياس لانتقي منها حصتي

اجاب القائد - لعنك الله ايها الغاصب فكل هذا يخص الامبراطور وما من احد يجرأ على مسها

فضحك الامير سيف وقهقه عالياً وتابع القائد كلامه بقوله

- هل تجهل ماهي سطوة سيدي ؟ فانت لست في نظره غير

ذرة رمال في بحره الوسيع

قال الامير ـ الصحراء مملكتي واسود الغاب انفسها تصمت عند مروري ، فاسرع وافتح صناديقك والا ادخلت سيفي في احشائك

فنظر الغريب الى من حوله ورأى ان رجال الامير يفوقون عدداً عن رجاله الذين اعتراهم الخوف والوجل فاجاب وهو يهز منكبيه

ـ خذ اولاً حياتي فانك لا تلمس ما هو لسيدي وانا حي

فامر الامير بوضع السلاسل في يدي الغريب ففعل رجاله بما امر وقال : اني لا اسفك دمك ايها الفارس الجميل ولكنني اريد حصتي من هذه الخيرات ولا قوة في العالم تستطيع ان تمنعني

قال القائد ـ اذاً اليك نصيحة ايها الامير

قال الامير ـ قل طالما انك لا تريد اعطائي غير نصيحة

قال القائد ـ لا تكتفي بقتلي وحدي بل انتصح مني واقتل كل هؤلاء الذين حولي من رجالي فلو بقي واحد منهم حياً وعرف باسيليوس سيدي بما فعلت ، فالويل لك واعلم ان ما من قصر من قصورك يبقى فيه حجر ، وتصبح حياتك ارخص من ورقة الشجر اليابسة

فنظر عبيد الى الامـير وقال ـ يجب ياسيدي ان نعمل

بنصيحة القائد ونقتل هؤلاء عن بكرة ابيهم ،

قال الامير ـ واي فائدة من ذلك؟ وماذا تهمني وقاحة هذا الرجل الذي لا يحمل لقباً شريفاً ـ حتى ـ وممن اخاف ؟؟

واقترب من القائد وقال له

ـ لقد اعجبتني شجاعتك، ولقد انزل الامبراطور من قدرك في انتدابك لحراسة القوافل ادخل في خدمتي وانا اعطيك يوماً ما كنوز تفوق الكنوز التي يملكها سيدك

فلم يجب الغريب بكلمة وتابع الامير بقوله

ـ انك تتظاهر بعدم الاكتراث ايها الفارس الجميل فاحذر لنفسك فانا اعرف طرق العذابات التي تجعلك ان تتكلم

قال القائد ـ انا لا اخشى ذلك واذا كنت كريماً كما تقول فلي عليك طلب

قال الامير ـ هو مجاب منذ الان

قال القائد ـ دع رفقائي يسيرون بسلام الى بيزنطة وبعد ذلك يكافئك مولاي، واما انا فاني بين يديك ورقيق لك

قال الامير ـ حسن فلقد اجبت طلبك وعفيت ايضاً عنك فاذهب بنفسك الى الامبراطور واعلمه بما جرى

وامر الامير بفتح الاحمال فانتقى منها الحجارة الكريمة والاقمشة النفيسة والطنافس النادرة وقال للقائد

ـ انت حر الان فاذهب وقل لسيدك انه وهو امبراطور

يستطيع بعد الان ان يرتدي اثوابه من بقايا سيف الدولة

قال القائد ـ انا ذاهب ولتكن لعنة الله عليك وعلى رجالك فما من احد قبلك وقف بطريق باسيليوس

ـ انا ذاهب وسارجع الى ارضك فتعرف حينئذ ما تكون آخرة من يغضب سيدي وسارجع لبيزنطة حاملاً رأسك على سنان رمحي ، انك اهنت اكبر امراء العالمين ، وانك جاهل قوة بزنطة فاعلم ان الوف العبيد يخدمون سيدي والوف الجيوش تطيع له ، وان اكبر الملوك يرتضون بقبلة اطراف ثوبه

فقاطعه الامير بقوله ـ ان خطاباتك مضحكة فهل تريد ان تكون مهرجاً عندي لتضحك نسائي ، فما هو اسمك

قال القائد ـ انا الشريف البيزنطي ليون فوكاس

قال الامير ـ سوف لا انسى هذا الاسم ٠ واذهب ايها الغريب بسلام ولا تخف شيئاً بعد الان من لصوص الصحراء فانت بحماية سيف الدولة والاسود نفسها لا تجسر ان تدنو منك

وحمل فرسان الامير كنوز باسيليوس الامبراطور الى نواحي حلب الشهباء

٥

ليلة في الصحراء

لم اخلك يوماً من حوب الصحراء وانا مستتر تحت جنح الظلام
وقد ارخى الليل سدوله «كعب زهير»

سار الركب طيلة النهار دون ان يخشى الشمس المحرقة التي تشع في الافق كمصدر من نار وترتفع لمروره سحائب من الغبار كأنها : واعصف غضبي ، وكأن الركب ثعبان بطول غريب ينساب في الصحراء نافثاً سمه القتال على كل من اقترب منه

وعندما غابت الغزالة وراء الرمال وابتدأ الليل يسدل ستائره الزرقاء رأى الفرسان في الشفق جبالا خضراء ، وكانت رطوبة المساء بنسيمها العليل ابتدأت تقوم مقام القيظ فساروا الى الامام بنشاط وسرور ، وابتدأت اجسامهم ترتاح لقرب الرقاد ، فالجياد نفسها اخذت تصهل فرحاً ؛ وظهرت النجوم في السماء كأنها طاقة من الزهر اللماع ، وعلى حين فجأة انبعث من بعيد نور حرائق تشع ، فعرف الامير انها الشارات التي امر باضرامها كل ليلة لكي تقود المسافرين في الصحراء المخيفة وهي بمثابة المنارات على شواطيء البحور ، فكانت تظهر كأنها ضفائر شعر مضيئة على رؤوس الجبال العالية

وها انهم الان يستظلون شجر الارز والصنوبر التي تبسط

اذرعتها الطويلة كأنها تريد ان تحافظ على الرطوبة المنعشة التي ينشدها الرحالة ووقفت القافلة لتستريح في الليل ، وشد الفرسان مضاربهم واشعلوا ضمنها نارهم وراحت الجياد ترعى العشب حيث التجأت الى طياته قطرات الندى ، وارتفع بين الخميلة مضرب الامير الارجواني حيث سينام محاطاً بامنائه ونزل الليل على الركب بغرام فكان غطاء مخملياً يداعب بحريره اجسام الفرسان التي خشنتها الغزوات واحرقتها الشموس ، وتعالت تغاريد البلابل بين الخمائل تطرب اسماع النائمين

وقف الحرس على رماحهم في سفح الجبال وظهر البدر يرمي انواره كأنه رداء من الفضة على كتفي الطبيعة

كل شيء ساكت والحرس بعيونهم السوداء يرصدون الشفق الساكن بكل يقظة

انما احدهم ارتجف فجأة ، هنالك في البعيد رأى نقطة سوداء فاخذ يتغنى بكلمة المرور فاقترب منه حارس آخر وسأله

ـ الا ترى شبحاً هنالك ؟ اجاب ارى فرساناً يسرعون

وتردد الحارسان وتساءلا اذا كان من واجب لايقاظ الامير واقلاق راحته في نومه ، انما الاوامر جلية فهم في الممتلكات البيزنطية وعليهم ان ينبهوا سيدهم عند اول طارىء ، فراح احدهم يتغلغل بين الاعشاب والفسائل الى الخميلة حيث قام فسطاط سيف الدولة الارجواني

وفجأة ارتفع الستار المخملي وتقدم القائد فيروز مستطلعاً لكن الامير ذا النعاس الخفيف كان اسبق منه فسأله : ما الخبر؟

اجاب الحارس : فرسان يامولاي يجوبون الصحراء

فقال الامير : فرسان في هذه الساعة ! لنذهب ونرى فقد يكونون تائهين ، ليستيقظ عبيد وندجا ورجالهما ، وهات جوادي سريعاً ـ فجاء بخيت العبد الاسود « بالابراق » اجمل خيول نجد واشدها ساقاً وامتنها ظهراً ، وبقفزة واحدة كان سيف الدولة على ظهره يسير ويتبعه قائداه ورجالهما

فقطعوا الربع ونزلوا الهضبة ، ومشوا في الصحراء ، فكان القمر ينعكس على اسلحتهم فتشع في الظلام

وكانت شرذمة الفرسان في الافق تتابع سيرها وقد اقترب منها الامير فرأى محاربين يحيطون بهوادج ، يلبسون الخوذات ويعتقلون الرماح

قال عبيد : هذا عظيم بيزنطي في السفر ـ وكانت القافلة البيزنطية شعرت بالامير ورجاله فوقفت مترددة ، ووجدت اخيراً ان ليس لها امام قوات الحمداني الكبيرة التي كانت تسير عليها بسرعة البرق سوى الهرب ، فبدلت مسيرها وفرت نحو الشمال

انما ذلك جنون ، فمن يستطيع النجاة بنفسه امام الامير سيف ورجاله ، ولم تكن الا دقائق حتى وقفت القافلة تنتظر رحمة الله

وامر الامير قائده ندجا بقوله ـ سر ومائتي فارس الى المواذج واعتقل السبيات ، فاطاع ندجا امر الامير وسار هذا بقواته على الفرسان يجندلهم في الصحراء عشرات عشرات بالرغم عن دفاعهم العنيف بسهامهم التي اصاب احدها صدره فاخترق جلبابه وتحطم على قميصه الفولاذي ، واخترق الامير كالمجنون صفوف البيزنطيين الذين رموا اخيراً اسلحتهم مسلمين ، فنظر الامير الى رجاله وقال لهم ـ تعالوا لنرى السبايا وصهل البراق صهيل الظافر في تلك الصحراء الشاسعة

٦

بيلتذ الاميرة البيزنطية

حياة الانسان !!! لاقيمة لها لولا بريق ابتسامة
من فم الحبيبة «من الف ليلة وليلة»

ووقف «ندجا» مع رجاله حول الهوادج ، وقد جندل الفرسان البزنطيين الذين حاولوا المحافظة عليها

وكانت الهوادج ذات المنافذ العاجية مقفلة بستائر من الحرير الزهري لطختها نقاط من دماء القتلى كأنها ورود حمراء

واقترب الامير وقال بغضب مشيراً الى الهوادج المقفلة

ـ من هم هؤلاء الرجال الذين تركوا حراسهم يموتون لاجلهم دون ان يحاربوا معهم ؟ انهم والله لجبناء

— فقال ندجا لاتحمل هذه الهوادج رجالا ياسيدي الامير بل فيها ما هو اثمن من الرجال فانظر

ورفع ندجا الستائر الوردية ؛ فرأى الامير على نور البدر امرأة جسمها من المرمر ممددة على الطنافس المخملية وقد غطت وجهها بذراعها الابيض

نزل الامير عن جواده وحنى رأسه في الهودج ، واخذ بعذوبة وتؤدة اليد الدقيقة في الذراع العاري بيده . فارتجفت الامرأة ورفعت رأسها بغضب فلمعت عيناها . وعادت سريعاً الى تغطية وجهها

ولكن الامير الحمداني قفز الى الوراء واستل خنجره وطعن به عاج الهودج فاخترقه ، وتقدم من المرأة واخذها بين ذراعيه فرفعت وجهها بكل دلال وعزة وتركت للامير المجال للاعجاب بجمالها الساحر

وكانت تلبس رداء اسود ربط على كتفيها بزرد من الذهب المحلى بالالماس

وهي فتية فتانة وملاحتها من ملاحة الآلهة ، وقد تدلت ضفائر شعرها المظلمة على جبين كالصباح ومنكبين من العاج وازدادت عيناها ظلمة وسحراً من الكحل الذي كبّرهما

وقد احمر وجهها من الغضب احمراراً جعله كنور الشمس فحياها سيف وهو يلعب بقبضة خنجره قائلاً

— سبحان الذي البس خديك ثوباً من الزهر

فحدقت بالفارس النبيل الذي حياها بهذه التعابير الممتازة وعرفت انه جميل كما انها جميلة وشريف عظيم كما انها شريفة وعظيمة ، فظهرت عليها الدهشة لمرآها اميراً نبيلاً في المقام الذي اعتقدت انها سترى فيه قاطع طريق سافلا

وقال الامير : لاتخافي ايتها الاميرة الفتانة ، فانت لم تقعي بين ايدي الاعداء ، لانه ليس في الوجود رجل مثلي يحترم الجمال ويجله ، وجمالك من جمال الآلهة ياغزالة الصحراء . فماهو اسمك

فظهرت على ملامح الغريبة دلائل الطمأنينة واجابت بكل كبر يسمونني الاميرة بيلتذا

قال سيف : وما تفعلين هنا لوحدك يا اميرتي اما خشيت مخاطر الرمال والليل

قالت : كنت مسافرة للالتحاق بسيدي حاكم ولاية خراسان فتاه الركب عن طريقه في مجاهل الصحراء ورمتني ارادة الله بين يديك

قال الامير : هل تعلمين من انا ؟

قالت : انني احزر ذلك ، فانت الامير سيف سيد القبائل الكافرة ، الفارس الملعون والعدو التاريخي لاهلي ووطني ، فانا اكرهك ، وقد قالوا لي عنك انك ظالم قاتل يلقبك الناس بالرجل الدموي فاقتلني اذا اردت ولا تعتقد بان تجعلني رقيقة

لك لاني افضل ان اقتل نفسي قبل ان اطيعك

فهز الحمداني رأسه وقال :

اقسم ببئر زمزم ، انهم قصوا عليك الخرافات والاكاذيب

ـ فيا ايتها الاميرة انني سوف لا اقتلك ولا اجعلك رقيقة لي .
ألست انا على قصر معرفتي بك رقيقاً لجمالك تعالي واتبعيني
يا لؤلؤة الصحراء فاني ساجعلك ملكة على الحاضرة والبادية

قالت : انما انا نصرانية ايها الرجل

قال : سوف احترم دينك احترامي لديني ففي حلب الشهباء
نصارى كثيرون يعيشون بحرية مذاهبهم ... تعالي فاني ساجعل
لك حياة كلها عز وعظمة ، وتعيشين بعد الان في قصور ساحرة
يطربها خرير النوافير وزقزقة العصافير ... ساعطيك جاريات
جميلات ليفرحن انظارك ومئات العبيد يطعن لارادتك وابلغ
الشعراء ينشدون ملاحتك ، وتعيشين بالاعياد والافراح ،
فتكونين في بلاطي كالكوكب الدري يستضيء الناس على
نورك الوضاح ، واساعطيك الجواهر واللآلىء والاقمشة
النفيسة المستجلبة من الموصل وبغداد ، واجعل كل ارادة لك
لامرد لها واكون اول خادم لك ـ وتدعينني مقابل هذا انظر
الى وجهك واملأ عينيّ من جمالك

قالت الاميرة : انك تهزأ باسيرتك ايها الرجل وتتظاهر
بالنبل والشرف في حين انهم قالوا لي عنك غير ذلك

قالوا لي انك اشرس من الحيوان واشد الناس عداء لنـا
وان لاشفقة في قلبك الذي لايعرف غير الجريمة وانك وحدك
لا ترتجف امام سطوة مولاي باسيليوس الامبراطور

قال الامير : قالوا لك الحق ايتها الاميرة بيلتذا ، فانا
قاس مع اعدائي ولكنني امين لاصدقائي ولا يطرق معوز باب
قلبي الا يجد فيه مقاماً وسيماً له ... فلا تخافي ياأميرتي ، وعندي
لك مملكة اهبك اياها واذا وجدتيها صغيرة فانني اكبرها لك
وجميع هؤلاء الذين يتبعونك ينزلون عنـدي على الرحب
والسعة فتعالي ياسيدتي الفتانة

قالت : ما تفعل اذا لم اتبعك ؟

قال : اتبعك اذاً انا ورجالي وحينئذ لايقترب احد منك
قبل ان يتعرف الى رماحنا وسيوفنا ، فاختاري بين الامرين
يالؤلؤة الصحراء

ففكرت بيلتذا وهي تبتسم ، وقد اثر في قلبها جمال الامير
وظريف حديثه ونبالة مقصده ، وشعرت انها قد امتلكت هذا
الرجل الذي عجزت جيوش مولاها الامبراطور عن امتلاكه

والمرأة ضعيفة تتلاعب بها كلمات الحب كما تتلاعب
الارياح باوراق الشجر

والمرأة التي ترفض مملكة لا ترفض قلباً يحبها حباً صادقاً

فمدت بيلتذا اجمل جميلات بيزانطة يدها علامة السلام

وقالت بكل بساطة

ـ ساكون ملكتك وسيدتك ايها الامير

فرفع الامير رأسه وقد ظهرت على ملامحه دلائل الابتهاج والسعادة وشعر حينئذ بخفوق قلبه الولهان وزاد سروره من جمال وجهها فكان كأنه يعيش جديداً في حبه الجديد العجيب ، وادار بانظاره نحو رجاله وقال :

ـ ايها الرفاق لقد اكتسبنا مملكة وعاصمة وكانت لا تزال تنقصنا ملكة عليها ... فها هي

فرفع الجميع رماحهم واستلوا سيوفهم هاتفين : « لتحيا مليكتنا لؤلؤة الصحراء » واحاطوا بالهوادج وساروا بها نحو المضارب ، فاقتاد الامير اميرته الى فسطاطه الارجواني ، حيث رقدت حالاً محاطة بنسائها العديدات

وفي صباح اليوم الثاني سار الركب نحو حلب الشهباء يحمل كنوزاً من الحب والجواهر ، وبعد ايام دخل الفرسان عاصمة سيف الدولة وعلى رأس الركب لؤلؤة الصحراء

٧

الورود الحمراء

ولد النسيم العليل من انفاسك المطرة، ففاح
اريجه في ليالي الصحراء الحارة ، وسكرت منه
الغواني في ظلال الخمائل « شاعر مجهول »

وابتدأت لسيف الدولة ايام معطرة من السعادة واراد ان يظهر لمليكته انه لم يكن كاذباً في وعوده، فجعل قصوره ملتقى لكل جميل وجميلة وشاعر وشاعرة واقام فيها الاعياد العظيمة التي لم يسبق لها مثيل

وبيلتذا اللؤلؤة الوضاحة كانت ترتاح لرؤيا النار التي اشعلت بها قلب سيد الصحراء ، فانه لم يكن عاشقاً الا لها ولاجلها وكل شيء لم يكن منها واليها كان بعيداً عن فكره وقلبه

فلم يعد يراه الناس كما في السابق يسير عند الصباح على رأس فرسانه الى الغزو والكسب برحلات جنونية في قلب الصحراء. بل ان الخيول كانت تصهل تواقة للحرية ضمن اسطبلاتها ، وصدى ضجيج الاسلحة في اروقة القصور لم يعد يوقظ في النفس حماس القتال واقتحام الاخطار

وكان الامير يقضي ايامه في قصر الحلبة بالقرب من بيلتذا

مالئاً نظره بمرآها الملوكي وسعيداً برؤيتها وتعساً اذا غابت دقيقة واحدة عنه فكان يحرس سباتها وهو لاينفك ينظر اليها مشبعاً نفسه من جمالها

ويعرف كل شامة من شامات جسدها وعدد ضفائر شعرها الاسود كالليل ويتراآها بخياله على مرآة جبهتها ويسكر من لحاظ عينيها البراقتين ووجنتيها الناعستين الناعمتين ، ويشبّه جناحي انفها ببرعوم الورد المتفتح ، ويرى على شفتيها الحمراوين دم اعدائه ، ويتلاشى عند مرأى نهديها المكونين كالرمانتين

وجاءه يوماً خبر من عامله قراقوله يعلمه ان ليون فوكاس القائد الذي سلبه ما كان يحمله لسيده باسيليوس الامبراطور من الهدايا قد اثار عليه بلاط بيزنطة وان الجند الرومي ابتدأ بالاحتشاد على الحدود يحاول قطعها والغزو في بلاد العرب

ولكن هذا الخبر لم يؤثر على حياة الامير الذي سلى المملكة في سبيل الملكة

وهو ممدد على قدميها ورأسه في حجرها يحدق الى عينيها حيث تتراآى له احلام ذهبية تروح وتجيء

وكان يرى بيلتذا حيناً خفيفة صريحة وحيناً سريّة كتومة ومرتدية دوماً الالبسة السوداء المزركشة بالذهب

ولم يكن يعيش الا في القبلات وقد نسيت يده حمل السلاح فيقضي ساعاته هادئاً وهو الذي كان يكره الهدوء ولا يخرج من

جناح القصر حيث تقطن بيلتذا ابـدا ، وقد اهمل كل امر ، وفوض صديقه قراقوله باستلام زمام الحكم عنه

فتمضي الايام وغذاؤه الاوحـد والاسمى في اجتناء القبلات من بيلتذا الزهرة الشهية الحية

فعاش الاثنان هكذا ملتجئين الواحد الى الاخر كعاشقين غير عاديين ، ممددين على فراش من الحرير حيث رسم المصور صور الاسود والانمار

وحتى يكون فراشهما اكثر رخاء فانهما كانا ينثران عليه الرياحين وهو في وسط بحيرة تعبق بالماء المعطر وعلى جوانبه الاربعة قامت محارق للبخور ، يرتفع اريجها نحو الجو فيعطر الهواء وقد رصعت مياه البحيرة بالازهار كأنها نجوم من السماء

وجلست وراء الستائر اجواق المغنيين والموسيقيين يطربون ساعات العاشقين ويتغنون باغاني الغرام

ويصغي المحبان الى الاغاني فتضيع عينا الواحد بعيني الاخر ويسكران من نشوة الحب وسره

والامير يزداد ولهاً وتعلقاً بالاميرة ، والاميرة تزداد ولهاً وتعلقاً به فتأخذه في كل مناسبة وتضمه الى صدرها ويقبلها في كل ثانية ويضمها الى صدره

وقد اصبح الامير كملك الجان في حبه لبيلتذا فانه جاءها بعجائب الجواهر ونادر الالبسة وجعـل قصره جنة فردوس

التطيب للحبيبة الاقامة فيه

وقد جربت مراراً ان تطلب شيئاً يستحيل على الامير استحضاره فاخفقت ، ولكنها اعتقدت يوماً انها وصلت الى بغيتها فقالت :

يا اميري ، ياحبيبي العذب هاتَ لي وروداً حمراء

فنادى سيف عبده مبارك وقال له : اقطف ياسيف من جنائني ورياضي كل الورود الحمراء واحضرها لهنا

اجاب مبارك بالسمع والطاعة وذهب

وطالت غيبته ولكنه رجع اخيراً فما كاد يرفع الستار عن غرفة الاميرة حتى عبقت تلك الغرفة بالاريج العاطر ودخل مبارك ومن ورائه الشاعر ابو فراس وفرقة من العبيد يحملون الورود واحنى ابو فراس رأسه وقال :

- ايها الامير ، رأيت من الواجب أن يحرس شاعر طاقات الزهور ففعلت . ولكن الامير نظر الى مبارك بغضب وقال له :

- لقد طلبت وروداً حمراء وقد جئتني بورود عادية

وقالت بيلتذا بعذوبة - اريد وروداً حمراء

فقال ابو فراس : هذه ورود من بغداد اغتذت من نور القمر

فقالت : اريد وروداً حمراء

قال : وهذه ورود من شيراز ناعمة كخديك ايتها الاميرة

قالت : اريد وروداً حمراء . قال هذه ورود من الجزيرة

بيضاء كالثلج كبياض صدرك . قالت : اريد وروداً حمراء
قال : هذه ورود الشام وقبلتها شهية كقبلة ثغرك
قالت : اريد وروداً حمراء ... ايها الامير لقد خدعتني فانك لاتستطيع ان تحقق ارادة صغيرة لي . فابتسم وقال لعبده : هل انت على ثقة من ان لاورود حمراء في جنائني ورياضي ؟
قال : نعم يامولاي . وادارت بيلتذا بوجهها فبانت على شفتيها حركة تشبه تراكم الغيوم قبل العاصفة فاخذ الامير يدها وقبلها فسحبتها غضبى ، فقال لها : ستكون لك الورود الحمراء يامليكتي الفتانة . ودار بوجهه نحو مبارك وقال له :
ـ هات خنجراً واناء يامبارك
فاصفرت بيلتذا وتمددت على فراشها الوثير وجاء بالاناء والخنجر ، فوضع سيف الاناء على ركبتيه واخذ خنجره من نصله الذهبي واولجه بذراعه وهو يبتسم
فصرخ به ابو فراس قائلاً : ما انت فاعل ايها الامير ؟
وكان سيف يبتسم ناظراً الى دمه يتساقط احمراً ارجوانياً في الاناء الفضي وقال : اعطوني الورود الان ، واخذ كل واحدة منها وخضبها بكل تأن وعذوبة في الدم فاصبحت باجمعها بعد حين كالارجوان فنظر الى بيلتذا ساعتئذٍ وقال هذه ورود حمراء ياحبيبتي
قالت : اي جنون اقترفت يا اميري فلم يكن طلبي غير مداعبة

قال : وما هو دمي اذا ارقته اكراماً لعينيك قالت : اغفر لي يا اميري الجميل فاني كنت بطلبي قاسية ، وتعال كيما اضمد بنفسي جرحك . وحنت عليه وقبلت ذراعه طويلاً ، ثم ضمدت جرحه باصابعها الطويلة التي تشبه الاقلام العاجية ووضعت يد الامير على قلبها فقال لها : وانا ايضاً اريد وروداً حمراء فهاتِ شفتيك التي هي اكثر احمراراً من الورود التي خضّبها دمي

وقتطف من شفتي بيلتذا الزهرة الشهية اللذيذة

وهكذا كان قلباهما يتفتحان يوماً عن آخر للحب ، ويطلع الفجر في كل صباح وهما متضامان متعانقان متحابان

٨

في ظلال الحرم

عداء الاقارب اشد حقداً من عضة الثعبان
« مثل عربي »

يسقي نهر قويق بخريره سكون ضفتيه وهدوئها ، وتمتد الخمائل السندسية من حوله سعيدة ضاحكة تقبلها الازهار الناعسة ، في الحدائق الغناء

وقد خيم الليل على الرياض المعطرة فارخى الظلام رداثه

واعتلت اصوات البلابل في ظلال الاغصان

ومر سيف وبيلتذا وهما متضامان في المماشي المزدهرة بالقرب من السواقي الجاريات فضحكت المياه عندما ترآى خيالاهما فيها، وتفتحت براعيم الازهار عندما لمست اوراقها ردائيهما

وسار الحبيبان وهما يتعانقان وقال سيف لاميرته

ـ هات قبلاتك دون وجل يا بيلتذا فليس من شهود هنا غير الياسمين والاقحوان والورد ، لنقتطف لذة الساعة الحاضرة فاللذة لا تأتي في كل يوم فتقدم لنا شفتيها الورديتين لنقبلها ـ انظري يا اميرتي الفتانة فالارض ليست جميلة الا بازهارها والمياه ليست لؤلوية الا بمرورها بين الاعشاب ، فلنقتطف السعادة في الحدائق الغناء ، ولانتوان فقد يكون يوم غد آخر عهدنا بها

قالت بيلتذا ـ ولم هذه الافكار الحزينة يااميري الجميل ، الا تحبني هذا المساء ؟ .

قال ـ انسيت يا بيلتذا انني امتلكتك بالقوة وان ابناء طائفتك يريدون ان يقتادوني باذناب خيولهم الى مولاهم باسيليوس وان غداً ـ لربما ـ تأتي الحرب فتاخذ مقام الحب ، في حين انني منذ عرفتك ما عدت احب الصحراء ولا الطعان واريد ان ابقى دوماً بقربك وان اعيش تحت كنفك ،

قالت ـ تعال يا اميري المحبوب هناك اثمار تلمع على الاغصان تعال نأكلها ونروي بها انفاسنا العطشي ولنطرد هذه الافكار

السيئة فهي لا تأتي الا للذي يخامها

قال ـ بيلتذا يا كوكبي ، كل شيء ليل من حولك ، فلا اريد من الاثمار غير شفتيك فهما وحدهما لذيذتان وشهيتان تستطيعان ان ترويا عطشي

وسار العاشقان بهدوء بين الازهار المعطرة وبالقرب من النوافير المنشدة ، والحديقة ملأى من السكون لا يسمع فيها من وقت لاخر غير تغريد البلابل في اعالي الشجر ، وسكتت هذه على حين غرة كأنها تريد ان تسمع خفقان قلبي الاميرين الحبيبين الذين كانا يخفقان خفقاناً متساوياً سريعاً

وقالت بيلتذا مشيرة بيدها الى بعيد

ـ من هم هؤلاء الذين في ظلال الخمائل ؟

قال الامير ـ الشعراء ايتها المعبودة فهم مثلنا يتنزهون في ظلال المساء لان الليل صديق الشعر كما هو صديق الغرام ـ تعالي نختبيء وراء هذه الخميلة فنسمعهم ؟

ومر الشعراء ينظمون ويتغنون وقد لمعت اثوابهم المزركشة في الظلام

وسمع الاميران ابن خالويه الفارسي يقول للمتنبي :

ـ انت ايها الشاعر العظيم ، هل تعلم ما يحل بالقمر بعد غيبته ؟

قال المتنبي ـ هل تجهل انهم يحطمونه فيجعلون منه نجوماً

جديدة . ومر الشعراء واختفت اصواتهم في ذلك الليل وعاد سيف وبيلتذا الى مسيرهما السعيد على الارض الخضراء المزدهرة

اما في الحرم ، كانت تبكي الغانيات وينتحبن وهن ممددات على وسائدهن النفيسة

فلا (ابريزا) العذبة ولا (دليلة) السمراء ولا (دنيا) الوردة الرشيقة ولا (زاهية) الحنونة ولا (عائشة) البيضاء ولا (زينب) الماكرة ولا غيرهن يستلفتن بعد الان نظر السيد الجميل الامير الفتان ابي الحسن سيف الدولة . وجميع هؤلاء الفاتنات الجميلات الشهيات يعشن الان دون حب ولا غرام

وقد تركنا الغناء والرقص واضعن الامل برجوع العاشق الجميل ، فهو لن يأتي ، لان حباً آخر قد اشغل قلبه وعقله ؛ ولم يعد لجمال حوريات حرمه تاثير على قلبه ، فلقد نسي على فم بيلتذا البيزنطية عطر انفاس بنات العرب ، فجعل هذا الحرم خلواً من الحب ـ ونسي قبلات الغانيات الحارة هناك في الجناح الايمن من القصر وهي وحدها تحكم في قلب الامير وقد قيدته بحبائل غرامها فجعلته عبداً لها

هو لن يرجع يابنات العرب فقد وضع حبه وروحه وقرة عينه على قدمي بيلتذا الحسناء

وكلهن قطعن الامل من رجوعه ، وقد امتلاء قلب كل منهن بالحقد والبغض لتلك الحبيبة التي سبت قلب الامير

فارتجفي يابيلتذا ذات العينين بظلام الميل فها ان الغانيات يجتمعن ويتآمرن على قتلك ارتجفي يا بيلتذا ذات وجه الصباح ، فها ان زينب الخداعة الماكرة تكلمهن بصوت خافت

وقد لمعت اعينهن عند استماعهن كلمة الانتقام ، وتشنعت ملامحهن ، وهن يصغين الى كلام زينب ، التي تقول

ـ هل نترك يابنات الحي اميرنا بين ذراعي الغريبة ؟ هي من بلاد الشمال قد سباها بسيفه ومع ذلك فقد اتت لمنالتنتصر عليه ، الا ترون انه منذ وقع بحبائلها ابتدأت الاسلحة تصدأ في نصولها والخيول تتكاسل في اسطبلاتها

كان يرجع الامير سابقاً من غزواته منتصراً وكله شهوات ويحمل الينا الكنوز والعبيد ، وهو عطشان لقبلاتنا التي لم تكن باجمعها لتروي ظمأه والان لا حرب ولا غرام ولا انتصارات ولا كنوز فهو يعيش ساجداً عند قدمي الغريبة الساحرة … فلم يعد سيدنا كما كان ولا سبيل لارجاعه الى جماله وبطولته طالما ان الملعونة تتحكم فيه وتجعله عبداً لها وهي تخدعه بكذبها في الحب متوخية من وراء ذلك التسيطر علية بعيداً عنا … فيا اخواتي تعالوا نرجع لسيدنا حريته ولتمت ابنة الشمال المظلم والا فلنفقد كل امل برجوع الامير الينا ، تعالوا فان عندي مايذهب بها الى الابد

فسرن باجمعهن في الاروقة ذات الاعمدة البرفرية كأنهن

جميلان في سباتهما الهادىء ! فهما - طبعاً - يحلمان في نومهما بلذائذ الغرام ، وقلباهما كفردوس فرح ينعكس على وجهيهما ومن كان يعتقد عند رؤيته اياهما بهذا السكون والجمال ان الموت ذا الجناحين السوداوين يرفرف فوق رأسيهما

وقد بزغ الفجر ذو الاصابع الذهبية وكل من في القصر نيام ، عدا نوافير المياه التي تخر كحبات المسابح في البحيرات المرمرية

وها ان الستار قد ارتفع عن باب غرفة الاميرين العاشقين وانسل منه شبح يسير بخفة ووجل نحو الفراش اللوير

اين انتم يا عبيد ويا ندجا ويافيروز ؟ يافوارس الفرسان وشجعان الشجعان اين انتم لا تحرسون نوم الامير

وانت ايتها الملكة النائمة بين ذراعي حبيبك بما تحلمين وهل احلامك في الغرام عميقة لهذه الدرجة حتى انك لا تستيقظين والموت على قاب قوسين منك وانت ايها الامير ذو القلب المعتز ، الا تدري وانت في حضن الحبيبة ان الشبح الذي ينسل نحو الفراش يريد ان يختطف مليكتك ومعبودتك بيلتذا

الشبح كان دليلة البيضاء تحمل بيدها زجاجة السم ، وكانت هنالك شمعة تحترق ، وانسلت دليلة بسكون وهدوء حتى « منضدة » الارز المرصعة بالالماس والزمرد ، حيث كان الكوبان اللتان يشرب بهما الاميران خمر الفرس وشراب الورود

ومدت الفتاة وعيناها تنمان عن الكره والخوف معايدها وكادت تسكب من الزجاجة في الكوب نقاط السم الزعاف ولكن يدأمن حديد امسكت بيدها واختطفت منها الزجاجة وقفز الامير من فراشه ، فاذ بدليلة المسكينة تقع على قدميه فرفع رأسها ونظر اليها وقال ـ انت يادليلة ايتها الفتاة العذبة تجاسرت على هذه الفعلة الشنعاء ،

وكانت دليلة سابقاً عزيزة على قلبه فخجل من نفسه لاجلها وقال : انت تجاسرت ان تمدي يدك لقتل ملكيتك يادليلة ... آه سوف ابتدع عذابات جديدة لاقتص منك

قالت بوجل ورعب ـ الشفقة يامولاي ، الشفقة لمن تحبك اكثر من محبتها لربها

واستيقظت بيلتذا حينذاك فدهشت لمرأى هذه الفتاة عند قدمي سيف الدولة وقالت :

ـ ماذا جرى ياأميري الجميل ومن هي هذه المرأة

قال : هي ابنة الخداع والخيانة ؟ فقد اوشكت يا كنزي المعبود ان تموتين لو لم يوقظني إنه الحب من سباتي ، فاني رأيتها تذرف السم في كوبك

فصرخت دليلة وهي تقبل ركبتي الامير : الشفقة يامولاى

قال الامير ـ ستموتين في العذاب ايتها الملعونة

فنظرت بيلتذا الى سيدها نظرة استعطاف وقالت ـ لا

نكن قساة يا اميري ولنغفر لها طالما ان نيتها السيئة لم تتحقق
فاجاب الامير بغضب : ابداً ، واخذ دليلة بذراعها وضغط
عليه فصرخت متألمة تقول : رحماك ياامولاي اشفق علي فلست
انا وحدي بل ان اصبع الصدفة انتقتني من بين كثيرات لاقوم
بهذه المهمة المخيفة

فابتسم سيف ابتسامة غيظ وقسوة وقال

ـ كنتن اذن باجمعكن تتآمرن ؟ أليس كذلك ؟ على هذا
ستمتن كلكن

وافتكر قليلًا وقد زاد وجهه رهبة وقال :

ـ انني اعفو عنك اذا قلتِ لي من هي التي سلحت يدك
وقادتك الى هذا العمل

فصرخت دليلة : هي زينب المكارة ياامولاي

فرفع الامير منكبيه بازدراء وقال : انك تخونين رفيقتك
لتحتفظي بالحياة فانت مخلوقة قذرة ومع ذلك فاني احفظ عهدي
لك وامنحك عفوي فاخذت دليلة طرف رداء الامير وقبلته
مراراً ولكنه تراجع عنها باحتقار ثم سكب ما في الزجاجة
باحدى الكوبين واعطاه لدليلة وقال لها انتظريني هنا

وخرج ولم تمض دقائق حتى عاد يحمل خنجراً طويلًا مخيفاً
فحملقت دليلة بعينيها وارتعبت رعباً لا يوصف ، وسألت بيلتذ
الامير قائلة : ايها الامير ما تريد عمله

قال : اعطاء العدل بجراه

وشعرت الاميرة ان لا شيء يردع سيف عن قصده فسكتت ونظر هذا الى دليلة وقال لها ـ اتبعيني

وسار امامها في اروقة القصر الساكن ، ووصل الاثنان الى الحرم حيث وجدا المفروشات مبعثرة ، وكان رئيس الخصيان على الباب فحنى رأسه عند وصول الامير وقال ـ ماهي اوامرك يامولاي

قال ـ ناد كل هؤلاء النساء فاني اهبهن منذ اليوم للمكارين والطباخين والعبيد ، واحتفظ فقط بزينب

فاطاع بشاره ـ (رئيس الخصيان) ، وسار سيف تتبعه دليلة الى غرف الحرم حيث كان العبيد قد ابتدأوا يوقظون النساء ، واقترب من فراش زينب فتظاهرت بالنوم فضربها على كتفها بقسوة فاهتز جسمها ونظرت فرأت الامير وشعرت ان بلاطة سقطت على صدرها وارتاعت خوفاً عندما رأت دليلة وراءه

قال الامير ـ عندما اخذتك يازينب لاجعلك ملكة كنت رقيقة سافلة ، ولكن قلبك حق مثقوب لا تحتفظ فيه معرفة الجميل فها انت ايتها الخائنة حاولت أن تقتلي بيلتذا ، وبما انك جبانة فقد ارسلت رفيقتك دليلة لتقوم بالمهمة

قال هذا وابتسم ابتسامة مرة ومن ثم اخذ الكوب من

يد دليلة وقدمه لزينب وهو يقول : هو ذا الشراب المخيف الذي استعددت عليه لتقضي على مليكة حبي فاشربي ما فيه فهو اخر هدية مني اليك

فارتعدت فرائص زينب وهي تمد يدها لاخذ الكوب وحنى الامير رأسه نحوها وقال

ـ اشربي شراب العسل يازينب الحسناء

فصرخت بارتياع واشارت بالرفض فاستل الامير خنجره ولما رأته زينب هكذا وقفت على قدميها كاللبؤة المائجة وافرجت عن نهديها الجميلين المكوزين وقالت ـ اضرب يا مولاي ، اضرب ،

فابتسم سيف وقال لها فلست انا بالساذج كيما اميتك ميتة جميلة كهذه فاشربي والا ... ووضع يده على جبهة زينب الصبيحة وبهدوء جعل نصل خنجره على عينيها الناريتين وقال

ـ يقول عني اعدائي انني قاس وظالم يازينب ، فانا اليوم كذلك فاعلمي انك بعد الان عدوة لي

فصاحت زينب بغضب ـ لعنة الله عليك ايها الامير الذي لا يعرف الشفقة ولا الرحمة

قال سيف ـ اني لا اشفق ولا ارحم علي الحيوانات القذرة مثلك ، وهل تجسرين ان ترفضي شرب ما كنت اعددته لغيرك فاشربي هذا الكوب والا فقرت عينيك بهذا الخنجر

واخذ بيده اليمنى خنجره وبيده اليسرى الكوب القاتل

فاختطفت حينذاك زينب الكوب و كرعته وبعد ثوان وقعت على فراشها لاحراك فيها . فرفع سيف يده فوق رأسها وقال :

ـ رحمك الله يازينب الحسناء ، لقد عدلت فيك ولكنني لم ابغضك و كيما يجني حرارة الموت احنى وجهه على وجهها ووضع على شفتيها قبلة عذبة فارتوت زينب من هذه القبلة واغلقت عينيها الى الابد على رؤية اميرها المحبوب الذي احبته حتى الخيانة

ترك الامير زينب جثة هامدة ودخل القاعة ذات الاعمدة الذهبية . والجدران اللازوردية . حيث وجد نسائه مجتمعات فنظر اليهن بازدراء وقال : ايتهـا النساء . انني اطردكن من قصري فلقد خنتن شريعة الضيافة المقدسة . وانتن غير اهل لان تعشن تحت سقف بيتي ، لهذا تذهبن الان حاملات قبلاتكن الساقطة الخداعة الى عبيدي وخدمي فان روحي تمتليء خجلا عندما افكر بانني كنت احب مخلوقات قذرات مثلكن فأرجعن الى القذارة التي انتشلتكن منها قبل ان جئت بكن الى هذا القصر

وادار بوجهه نحو رئيس الخصيان وقال له بصوت خافت :

ـ ومع ذلك فاعط كلا منهن مائة دينار . قال هذا وترك القاعة الى ديوانه حيث استحضر القائد ندجا وقال له : كن على استعداد مع الفي خيال ومائة حارس ، وخمسة عشر هودجاً للسفر

وادار بوجهه نحو بيلتذا التي كانت تتنصت اليه بكآبة فقالت له بلهجة تأنيب وحزن

ـ ماذا فعلت يامولاى ؟ قال : فعلت ما كان يجب ان افعله لانقاذ حياتك ايتها الاميرة الجميلة فانت وحدك الذي يجب ان احافظ عليها بحياتي . قالت اتخشى النساء يا اميري ؟

قال : لاخوف من الرجال بل من النساء ايتها الاميرة فهن حيل وخيانات يغرن من جمالك ويكرهنك لانك غريبة ـ لهذا يا بيلتذا الحبيبة يجب ان نرحل الى الجبل فهنالك امتلك قصراً عظيماً يقع بين تعاريج الصخور وهو احمر كأنه عمود من نار تحيط به احراج الصنوبر والسرو والارزوهو قائم على كتف الوديان ، فهناك نعيش بغرامنا مرفرفين فوق القمم والجبال ، حيث لا يد تجرأ ان ترتفع غاضبة امام جمالك فتحمل الشام في عينيك يابيلتذا وورود شيراز على خديك وثلج لبنان على نهديك ورمان حماه على شفتيك وهذه كنوز الارض باجمها لي فانسا فراذاً

قالت : حيث تسير قدماك طريقي يا اميري المحبوب وفي ذلك الصباح رأى الناس اجمل الفرسان واشجعهم يسيرون في ركاب الاميرة الجميلة . وفي طليعتهم الامير سيف بلباسه الحربي ممتطياً جواده البراق ومرتدياً برنسه الابيض الموشي بالذهب والماس يحمل رمحه اللماع ويسير في طليعة القوم . ومن حين لآخر يقف حتى يصل اليه هودج الاميرة فينحني نحوها ويقول لها : دعيني اقطف من عينيك نوراً يقود خطواتي نحو قصر التعاريج

٩

امتلاك الزهور

اواصلها طيلة الليل حتى تصبح الخيالات حولنا بلون
احلامنا الذهبية « الف ليلة وليلة »

وصلوا الى القصر عند المساء ، فظهر امامهم كأنه جبل من
حدم بين جبال من صخور تحيط به الاودية ، وجاء الليل بخطواته
الملكية ، فدخل الوديان وارتفع نحو الجبال ، ولم يكن هذا
القصر بهيئته الموحشة ، وحصونه الحربية ، واشجاره السوداء
بعش الغرام الذي ينتقيه العاشقون ، ليقضوا فيه ليالي الوصال
ولم تكن غرفه مزدانة بالاطالس والطنافس ، بل كانت باجمعها
من البورفير والمرمر واخشاب الارز والسنديان

وقاد الامير بيلتذا الى غرفها تتبعها نساء الشرف وقال لها:
لا يكون لك هذا المساء قصراً لائقاً بك ، فكل ماهنا عسكري
حربي . انما ليس فيه كما في حلب خطر على حياتك الثمينة

فالقت نظرة مخلية على الامير وقالت : وماذا يهمني هنا
او هنالك فحيث انت العظمة والجلال والحب

قال الامير : ستصل غداً يا اميرتي القوافل حاملة اجمل
وانفس ما في حلب من المفروشات ، ويصل الشعراء والفناون
والموسيقيون والمغنون فيكون لنا في قصر التماريج ما كان

في قصر الحلبة

ولم يمض يومان حتى انقلب القصر من حال الى حال ، كأن الجن قد استعملت كل قواتها فجعلت هذه القلعة الحربية عشاً مزدهراً للغرام ، فاختفت الجدران الرخامية . والابلطة المرمرية تحت الستائر البعلبكية ، والطنافس الفارسية ، وقد استحضر الامير من حلب الاواني الذهبية والصواني الفضية . وابتنى مئات من العمال النوافير والبحيرات وغرس الزراعون الاشجار والازهار فكانت بيلتذا في كل ساعة ترى عجائب جديدة ترتفع من حولها

وكان يقول لها الامير - واذا تمنيت ياأميرتي نجوما من السماء حطمت الشمس وجعلت لك من شعاعها تلك النجوم

وعند هذا كانت بيلتذا تشعر بالسعادة كلها فترتمي بين ذراعي الحبيب لتذوق لذائذ الغرام ونشوته

وكان سيف يعيش بسرور دائم وهو بعيد عن وساوس الحروب والفتوحات وقد ترك حلب بين يدي وزيره قرقولاه الحكيم وكان السعاة يأتونه في كل مساء يحملون آخر اخبار مملكته .

انما جاء ندجا القائد بنفسه يحمل اخباراً هامة ، فان حرس الحدود في سفح جبل طورس كانت مهددة باجتماعات بيزنطية ، قوية تدل حركاتها على العداء وقرب المهاجمة ، وقد اقر سجين بيزنطي

اسره حراس الحدود بان قوات كبيرة تسير بسرعة نحو بلاد الامير يقودها ليون فو كاس الشهير

وسمع الامير هذه الاخبار بهدوء تام وهو على ديوان وثير بالقرب من بيلتذا

فقال له ندجا انني اعتقد ايها الامير ان مواقع كبيرة ستقع قريباً ؛ ولقد آن الاوان لان نقيس رماحنا برماح عدو لائق بنا

فابتسم الامير ابتسامة ازدراء وهو يداعب قبضة خنجره وقال: ليون فو كاس؟؟ أليس هذا اسم الرجل الذي اقسم على موتي عندما اسرناه في الصحراء وسبينا من قافلته بيلتذا اميرتي ومليكتي .

قال ندجا ـ هو نفسه يا مولاي

قال الامير ـ فاهتم به اذاً انت يا ندجا لان ليون فو كاس اقل من ان ينازله سيف الدولة

قال ندجا ـ انا يا مولاى ليست هنالك قافلة ولا غزو بسيط بل هناك جيش باسره يسير نحو بلادك يريد امتلاكها

قال الامير ـ وهل يخيفك هذا الجيش

فوضعت بيلتذا يدها على ذراع الامير وقالت :

ـ انا اعرف ليون فو كاس عندما كنت في بلاط بيزنطة فهو رجل قاس ظالم ومحارب ماهر فلا تحتقر ايها الامير نصائح ندجا الحكيمة ، لانك تجهل تماماً قوات البلاد البيزنطية التي

تركتها لاجالك، ففي استطاعة بيزنطة ان تجيش فرقاً لا عدادلها فكن على حذر ياسيدي

قال الامير — ليهتم ندجا في هذا الامر، فالحب قد شفاني من وساوس الحرب وقد امتلكت اجمل الممالك وهو قلبك فلم يبق لي من بعده مطمع ....

ونظر عندئذ الى بيلتذا وابتسم لها وهو يقول

— وهل بقي لي من تمن بعد ان سكبت على روحي كل السعادة، انما قد طلبت مني ان ازين هذا القصر بالازهار، وقد طلبت اليوم من صديقي الامير عتبة الذي يملك الحدائق الغناء في عاصمته ان يرسل لي الوف الازهار بمغروساتها بعد ان يقتلعها من الارض مع ترابها فاجاب مع رسول يصل تلك الساعة، بانه مستعد ان يعطيني فرسانه وعبيده ونساءه ولكنه لا يعطيني ازهاره، فاذا كنت اريدها فليس علي الا ان اذهب بنفسي لاخذها .. نعم .. ولقد قررت ان اذهب بنفسي

قال هذا وعيناه تقدحان شرراً، فنظر اليه ندجا وقال

اطلب منك ايها الامير منحة، دعني اذهب وامتلك ازهار الامير عتبة للملكة بيلتذا ولكن اذهب انت واستقبل جيوش ليون فوكاس

قال الامير — وما يهمني هذا القائد القزم فبيلتذا تريد ازهاراً وساذهب لاستحضارها لها واما انت فارجع حالا لحاب

وقم مع الجيوش الى مقابلة ليون فوكاس الذي عليه ان يقدم برهاناً على بطولته قبل ان اتنازل لملاقاته في الطعان

فحنى ندجا رأسه باحترام وخرج . فقال الامير لبيلتذا — هؤلاء هم رجالي الذين احبهم فاذا قلت لاحدهم ان يذهب للموت لفعل وهو سعيد

قالت بيلتذا — ومن لا يحبك ايها السيد الجميل فانت اشجع واكرم واجرأ الرجال ، ولكن عليك الا تخاطر بنفسك لتمتلك لي [illegible] الزهور ، أليس عندي كل العطور في قلبك وكل [illegible] قبلاتك

ولكن الامير عتبه [illegible] لي ، وقد خالف امري لهذا قررت ان اقتص منه وسأسافر عند الصباح لامتلك لك حدائق الزهور

١٠

احمال الذهب

> تعال يا صديقي ، فاذا اردت ان تتلذذ بمنظر حديقة نادرة الجمال فعرج علي
>
> « شعار احدى حدائق حلب »

ولم يتأخر سيف في الاقتصاص من الامير عتبة ، فانه سار على رأس فرسانه الدلميين وحاصر مدينة الزهور وافتتحها وقتل عتبة واستعبد رجاله واحرق قصوره وحمل على عجلات

عظيمة ملاءى من التراب مغروسات الازهار فكنت ترى قافلة عظيمة مؤلفة من الوف الحيوانات تسير عـلي ظهورها الرياحين والزهور باغراسها الخضراء وسارت باجمعها لقصر التماريح الاحمر ، حيث ازدانت الحدائق بها فصارت فردوساً ارضياً جديداً

وهكذا تحقق ما تمنته بيلنذا ، فعاد الامير الى معيشته الغرامية في وسط الاعياد والحفلات النادرة المثال وكان قد وصل الشعراء وعلى رأسهم المتنبي يتبعهم الموسيقيون والمغنون

وانقلب القصر من حصن عسكرى منيع الى سرايا طروبة كلها عجائب وغرائب ، ينشد فيها المغنون ويتغنى بين جدرانها الناظمون ويسكر من ازهارها المغرمون

وشدما كانت دهشة الغرباء عندما كانوا يطرقون باب تلك السراي حيث يجدون حالا مضافة اميرية لم يعرفها امير قبل سيف الدولة فتقوم جوقات الموسيقيين لاستقبالهم ويدخلون على الامير ويجلسون على مائدته مهما كانت منزلة كل منهم فقيراً او غنياً ، شريفاً او بدوياً ، وله ان يقضي الوقت الذي يريده في الضيافة وله ان يرحل اية ساعة اراد

وهكذا كانت تنقضي ساعات الامير بين الالعاب واستماع الاشعار والشوى بين ذراعي الحبيبة . ولكن الليالي من الزمان حبالى

وقد غادرت الحرب من سعادة الامير فاستدعته اليها ، وكان ذلك على اثر خيانة عظيمة اضطرت سيف الدولة الى الرجوع الى الطمان .

وكانت بيلتذا على صواب عندما انذرت الامير بقولها ان ليون فوكاس القائد البزنطي الذي كان يستعد لمهاجمة مملكة سورية هو رجل مخيف قاس فان قلبها المفعم بالحب كان دليلها وقد اوحى لها ان في ابتعاد الامير عن حلب خطراً عليه وعلى سلامة المملكة

وهكذا كان فان ليون فوكاس كان قد دبر مكيدة دنيئة فجعل له اصدقاء ببلاط الامير اشترى ضمائرهم بذهب بيزنطة ، وكان هؤلاء من كبار الموظفين ورجال حاشيته ، فعاشوا تحت كنف سيدهم بسعادة وهناء وهم يتآمرون عليه في خلواتهم

ولما اعلم هؤلاء الجواسيس ليون فوكاس بان الامير ترك حلب وهو يعيش برخاء وخمول في قصر التعاريج باعلي الجبال رأى القائد البيزنطي ان الوقت قد حان للعمل

وابتدأ ذهب بيزنطة يفعل مفعوله فاشترى الخونة اخلص رجال الامير واشدهم امانة له ، في حين ان سيف الدولة ذا القلب النبيل لم يشك دقيقة في اخلاص حاشيته له واول من باع سيفه للبيزنطيين كان ابا الحسن شقيق القائد ناصر الذي

كان الامير يحبه كثيراً ، فانه لم يستطع ان يبقي على امانته عندما سمع رنين الذهب وهكذا سرت الخيانة الى غيره حتى اتصلت بالحرس الاميري الذي تركه سيف الدولة في عاصمته فباع كل من رجاله نفسه بقبضة من الذهب وقد وعدوا مقابل ذلك ان يسلموا الامير الى القائد البزنطي عندما تتبح لهم الفرصة التي لا بد ان تكون قريبة

ووصلت للامير فجأة اخبار عن القائد ندجا الذي كان قد ذهب بامر الامير الى حدود الشمال على رأس فرق عديد ولكنه وجد نفسه فجأة بعيداً عن قواعده العسكرية فخشي الوقوع بين ايدي البيزنطيين دون ان يكون مستنداً على فرق تحمي ظهره فارسل ساعياً للامير يطلب منه قوات جديدة ويرجوه ان يحضر بنفسه على رأس جيوش جديدة

فرفض الامير اولا اجابة دعوة قائده فانه كان يصعب عليه جداً ان يهجر عشيقته المعبودة ويبتعد عن قبلاتها ، ويستبدل ليالي الغرام بليالي السهاد والطعان ، ولكن بيلتذا نفسها حرضته على السفر والتمست منه الا يهمل اكثر مما فعل امر ليون فوكاس وهي تقول

ليس بين القواد ياأميري رجل خداع وظالم كمثل هذا القائد فاني اشعر انه يتآمر على حياتك فاذهب وطارده واقتله نعم انه من ماتي وديني انالم تبق لي ملة ولا دين غير روحك الجميلة

فاضطر اخيراً ان يذعن لمطالب اؤ وّذ الصحراء ورآه الناس في صباح اليوم الثاني يرتدي قميصه الفولاذية ويحمل سيفه ويأمر فرقه بان تتبعه لاول ممرات جبال طورس

وجاءت بيلتذا تودعه ، فحدقت بوجهه الجيل الهادىء ، وحدقت بكل قواها الى العينين الساحرتين اللتين احبتهما اكثر من حياتها وقات

ـ ايها الامير ان قلبي يقول لي انك ستمر باخطار عظيمة فلا تتقدم نحو طعنات الاعداء وافتكر دوماً أنني انتظرك واني على نار الغرام والجوى وانك اذا لم ترجع وقتلك ايمن فو كاس فتحت امامي ابواب لظلمات الابدية

قال الامير ـ كوني دون وجل يا مليكتي فلم يصقل بعد السيف الذي يصطادني

واخذ منها قبلة جعلها تعويذة سعيدة له وسار على ظهر جواده البراق اجمل خيول نجد

ونزل الامير نحو الاودية وكان يراكبه بعض الخيالة الاكراد من حرس الاميرة بيلتذا وفجأة رأى امامه رجلا ممسكا بعنان جواده يصعد نحو الجبل بسرعة فحدق فيه النظر وصرخ فجأة: هذا القائد بصرة ، فلم هو هنا ياترى وليس مع الجيش ؟

نعم كان الرجل بصرة الامين لمولاه بنفسه وعندما عرف

الامير صرح عالياً وعدى نحوه بسرعة وكان العرق يتصبب منه عندما مثل بين يديه وقد اعتلى اثوابه ورأسه الغبار الكثيف فقال له الامير :

ـ ماذا جرى يابصرة ولماذا انت بعيد عن الحرس ؟

فرفع القائد الى شفتيه طرف رداء الامير وقال : لم يبق لك يامولاي من حرس غير القلوب التي تحبك

ـ ماذا تعني بهذا القول يا بصرة

ـ انك تسير نحو الخيانات والموت ياسيدي فان حرسك قد انقلب عليك وباع نفسه بذهب بيزنطة وهو ينتظر قدومك كيما يقع عليك وقوع النسر على فريسته ويسلمك لاعدائك

ـ وكيف تعرف ذلك ياصديقي ؟

ـ عندما وصلت اوامرك امس بتعبئة الجيش وانك قادم للسير على الاعداء كنت في قاعة القصر الكبرى على مقربة من قواد الحرس ، فاذا بي اسمعهم يبشرون بعضهم بعضاً بقرب وقوعك بين ايديهم ويتشاورون كيف انهم سوف يلقون القبض عليك ويسلمونك لاعدائك فاسرعت بالسير اليك لاحذرك من هذه المؤامرة المخيفة وقد مشيت طيلة الليل دون راحة وكدت اهلك مع جوادي لولا لطف الله والشكر له

فابتسم الامير بعذوبة سامية واعطى يده لبصرة ايقبلها

وقال له : ايها الخادم الامين، اشعر الان انني فعلت جيداً بجعلك حافظ علمي وحارس رأسي ، والان قل لي ماتتمنى فهو مستجاب

قال : لا اطلب شيئاً سوى خدمتك يامولاي

ولكن الامير قلع بكل جلال برنسه الابيض الموشى بالذهب والحجارة الكريمة ووضعه على كتفي قائده الصادق ، وهذه منحة لم يمنحها سيف الدولة لاحد من قبل

ونظر بعد ذلك الى رجاله وامرهم بالعودة الى القصر والرجوع اليه بكل الحرس الكردي ، وقال لبصرة :

ابقى يابصرة بالقرب مني فترى كيف تكون مجازاة الخونة

وكان هؤلاء الانذال قد وصلوا الى باب الممرات في الجبل وقد لمعت في احد قهم دلائل السرور الخبيث ومع ذلك فانهم كانوا يشعرون في داخلهم بالخوف والوجل كأن اظافر غير منظورة تخدش صدورهم العريانة ، وفي ذلك الوقت الذي كانوا فيه يكمنون لسيدهم ليسلموه الى البيزنطيين كانت ذكرى حسناته نحوهم تعذبهم فهو كان غير شفوق على اعدائه ولكنه وفي لاصدقائه

وفجأة رنت فى آذانهم اصوات حوافر خيول عديدة على الرمال فانتفضوا غضباً ؛ فالامير لم يكن لوحده ؛ وظهر عليهم على حين بغتة الستمائة فارس الذين يؤلفون الحرس الكردي وقد اعتلت اصواتهم الحربية حتى عنان السماء ؛ وما هي الا دقائق

حتى كان هؤلاء قد احاطوا بالخونة احاطة السوار بالمعصم واعملوا في رقابهم السيف ولكن الامير تقدم اليهم وامرهم بالكف عن القتل ونظر الى رجال حرسه الخائنين وقال لهم :

ـ ارموا اسلحتكم ايها الرجال فهذه الاسلحة انما اعطيتكم اياها للشرف لا للدنائه ، لقد نسيتم حسناتي وفضلتم على صداقتي ذهب بيزنطة فساقتص منكم اقتصاصاً رائعاً فارموا سلاحكم ايها الرجال

ورمى الرجال اسلحتهم ما عدا البعض منهم الذين هربوا والبعض الاخر الذين لم يمهلهم الاكراد فقتلوهم وتابع الامير خط به للاحياء منهم قال :

لقد حكمت ان تقطع السنتكم التي تناقشت بالمؤامرة علي وتقطع ارجلكم التي قادتكم لهذه الممرات للعبث بسيدكم وتقطع ايديكم التي حملت السلاح في وجهي، ويكون بعد ذلك تشويهكم صورة طبق الاصل عن نفوسكم الخبيثة

وحكمت ايضاً بذبح جميع الاسرى البيزنطيين الذين في سجون الدولة وذلك مقابل دناآت قواد بيزنطة الذين نصبوا لي في عقر داري هذه المكيدة الشنيعة

وسار الحرس الكردي بالخونة نحو المدينة وبقي سيف لوحده ينتظر قدوم جيوشه يسير على رأسهم الى الوقيعة وكانت روحه حزينة جداً فقال :

ـ ما العمل لنحافظ على محبة الذين نحبهم ونحسن اليهم ؟
وامتطى على حين غرة جواده البراق الذي كان يضرب
.. ... افره غيظـاً وسار كالمجنون نحو الصحراء وقد
استيقظ فيه روح الحب وروح الحرب والانتقام
انما ايها الامير الشجاع مالك تسير لوحدك في القفار ومن
حولك الخونة والاشرار فانهم سيلاقونك بعد دقائق وتضطر ان
تدافع لوحدك عن حياتك ؟

وهكذا كان فقد رآه من بعيد الجبناء الذين فروا من
المرات عندما ظهر عليهم الامير بين فرسانه الاكراد فهجموا
عليه والفرح يملأ افئدتهم، وقالوا جاءت ساعة هذا الامير العاتي
وسننال المكافأة البيزنطية هذا المساء بعد قتله او اسره ؛
ولكن الامير كان قد رآهم مقبلين عليه ايضاً ؛ وروح الشر في
اعينهم فادار عنان جواده البراق وسار في الصحراء بسرعة
البرق حتى توسط اشجاراً في القفر فوقف ينتظر وكان الخونة
لايزالون يطاردونه ولما اصبحوا على قيد الصوت منه صرخ
بهم قائلا :

تريدون ذهباً ايها الثعا ين السامة فخذوا...

وقلب جيوبه وسار امامهم فكانت القطع الذهبية تسقط
على الرمال كما هي نقاط الامطار

فوقف الجبناء الطماعون وانفك بعضهم عن مطاردة سيدهم

وترجلوا واخذوا يتضاربون فيما بينهم في سبيل الذهب الذي، زرعه الامير في مسيره

وظل سيف الدولة يسير في البيداء وهو يقتلع عن اثوابه جواهره واحجاره الكريمة ويرمي بها للباقين من مطارديه من الماس وزمرد وغيرها فاشغل بالتقاطها مابقي من الخونة ونجا نفسه بعد ان اسمعهم قهقهة مخيفة تجاوب صداها في القفر الشاسع

١١

لعد حدلت ايا الامير جثث العتل من اعدائك على التلول كما
تسقط اوراق الازهار على راس العروس « المتو »

وكانت انفاس الصحراء تشعل قلب الامير ، فسار بعيداً في الفيافي والقفار في سهل من رمال لا آخر له يشبه تحت شعاعات الشمس المنعكسة عليه بحراً من ذهب ، وكانت تظهر بعض الاحيان تلول من الرمال تبين كأنها اكوام من فضة اومن ثلج

وظل البراق الذي اعتلى الامير صهوته يسير كالمجنون

وكان الوحدهما في هذه المملكة الصامتة ـ الامير وجواده ـ وقد استيقظت في قلبيهما بعد ليالي الغرام والراحة روح القتال

وكان الامير يفكر بعدوته المخيفة بيزنطة المتعجرفة التي كانت تجمع قواتها وتستنبط حيلها لقتله والخلاص منه

وللمرة الاولى شعر بالخطر المحدق به واشعلت في قلبه

ثار الغضب عندما فكر بالخيانة التي اكتنفته من كل جانب واحس ان يده اصبحت من حديد وان سيفه ينتفض في غمده

نعم ان حب بيلتذا كان متسلطاً على قلبه ولكن حب الانتقام اخذ ايضاً مقاماً كبيراً فيه ، وشعر بان كل مشعر من مشاعره لم يعد يفكر بغير الاخذ بالثار

وعلى حين بغتة ذكر واجبه، فاوقف جواده البراق اجمل خيول نجد بطرفة عين ، ونظر بجلال ومهابة حوله ، فلم ير غير الصحراء كأنها تحت نور الشمس بساط من ذهب ، وليس في كل ما امامه دليل حياة ... انما نحو الغرب كانت حبال تناطح السحاب ... واليها التجأ اعداؤه الذين باعوا سيوفهم وضمائرهم الى ليون فوكاس بذهب بيزنطة

وعندئذٍ سار سيف كالبرق نحو الممرات ، وكانت غريزة عجيبة تقود خطواته نحو الاكمات الرملية البعيدة ، وبعد ساعتين من جريان غريب وصل الى سفح الجبل وبعد ان ارتوى وجواده من ينبوع غزير صافي السلسبيل صعد السفح راجعاً الى المكان الذي تركه قبل ان هاجم حراسه الخونة ، فاستقبله رجاله الامناء بهتاف الفرح وكان هناك القواد بصرة وعبيد وفيروز وقمر وجانشاه، وباجمعهم كادوا يموتون جزعاً عليه عندما اخبرهم بصرة بخيانة الحرس ، وتقدم عبيد وقال :

ـ ياسيدي واميري ان اوامرك قد نفذت وسارت الجيوش

شطر « ميا فارقين » فتصلها غداً وقد لامست فرق قائدك ندجا العدو وجاءتنا اخبار تقول بان هذا الاخير قد انهزم امامها في مواضع كثيرة بعد ان ترك بين ايدي ندجا كثيرين من الاسرى منهم بعض الاشراف من امراء بيزنطة

قال الامير : حسن ذلك ... وما وراءك ايضاً

قال : ان قرقولاه وكيل الملك باقٍ في حلب وسافر هدار على رأس القوافل متتبعاً الجيوش وظل مبارك على رأس فرسانك ليواكب مسيرك ، وترى ان جميع بدو فيروز واكراد جنشاه وفرقتي الديلمية سعداء بالسير في ركابك الى الميجاء وقد وعد امير طرطوس عبد العزيز ان يحالفك ويسير تحت امرتك الى قتال البيزنطيين

قال الامير : حسن هذا ايضاً

قال عبيد : ما هي اوامرك يامولاي

قال : نسير الى ميا فارقين اليوم فنصلها غداً وبعد ذلك نتجه شطر الشمال لنلتحق بندجا ومن هنالك نهاجم قوات ليون فوكاس ونقطعها ارباً ارباً

فهتف الجميع لاميرهم الجميل البطل وساروا بركابه

وفي صباح اليوم الثاني ابتدأت حملة ابناء الصحراء وهي الحملة المظفرة التي استحق لاجلها الامير قبل كل عمل لقبه سيف الدولة ـ او سيف الايمان ـ والتي كاد الامير يترك حياته

العزيزة فيها بين يدي عدوه الاكبر ليون فوكاس

ودامت اشهراً حتى ارتاعت لها بيزنطة على شاطيء البوسفور والتقى سيف الدولة بقوات جيشه في ميا فارقين يقودها ابن ايوب ، وجعفر وعبد الملك ، وكانت الفرق بعدد الجراد تسير على اصوات الطبول والربابات ، ضامة في ثناياها متشردي الصحراء ومطاردي الخيال

واخذت الفرق بعد ساعات من مسيرها تتسلق الجبال ، سائرة كالابالسة في مضايقها مكتسحة القرى والمدن، سالبة غانمة

وكانت تزداد يوماً عن آخر بما ينضم اليها من العشائر والاتباع فكانت كأنها برجالها وقوافلها وحيواناتها حية طويلة جداً تنساب بين المفاوز والمغاور

وكان سكان القرى يفرون من امامها شطر الشمال لايلوون على شيء تاركين متاعهم ورزقهم بين ايديها

ولو وقف بعض هؤلاء الفارين ينظرون اليها لظلوا اياماً واياماً ينتظرون آخرها

وكانت تسير بسرعة البرق فتنقض على البلدان الآهلة انقضاض الصاعقة مهددة بنواجذها المخيفة بيزنطة عروس البحار

وتوغلت الفرق في الشمال فسقطت يوماً على مقدمات رجال ليون فوكاس وقد غابت السماء من غيوم الغبار التي اثارتها في هجومها فتراجع الروم مذعورين وسارت تتبعهم فهدمت

الحصون التي وقعت امامها واقتلعت القلاع التي حالت دون مسيرها ، وتراجع البيزنطيون من كل جانب وفر ليون فوكاس مع قواده واستولى الرعب على بيزنطة حيث كانوا يقولون ان سيف الدولة المخيف سيمطر عروس البوسفور انهراً من دم

وازدادت عند ابناء الصحراء المكاسب ، فكل مدينة مكتسحة كانت تقدم كل كنوزها وذهبها وحرائرها

ولم يبق من القصور العالية المحصنة غير رسومها ومن الاديرة غير حجارتها ومن المدن غير انقاضها

وكنت ترى عند المساء من اعلى الجبل نيراناً مستعرة فى كل مكان وهي القرى والدساكر تحترق وراء الفرق العربية المظفرة ، ودخانها يتصاعد في الهواء كأنه اعمدة سوداء

وظلت الفرق تتقدم في ظفرهـا العجيب نحو الشمال ... وكان الامير يظهر على الاعداء فجأة على رأس فرسانه كأنه خرج من الارض او انقض من السماء فيقتل ويحرق ويسبي دون شفقة ولا رحمة غير تارك حيث يمر غير الخراب والموت فكان كأنه عاصفة هوجاء تقتلع امامها كل شيء... الناس والحيوانات والبيوت والاشجار والقلاع

وكانت مئات الوف المواشي تقع يومياً في ايدي ابناء الصحراء ، فتسير وراء الفرق يقودها الوف الاسرى المكبلين بالحديد ، والفرسان يسيرون دوماً الى الامام وقد فقدوا كل

حاسة القتل والنهب ، وقد وقع بين اسراهم اكثر من مائة وعشرين اميراً من حاشية الامبراطور باسيليوس العظيم، وسبوا اجمل النساء واكثرهن ملاحة فكنت ترى فرقاً عديدة من العذارى البزنطيات بعيونهن النجلاء وبشرتهن الثلجية وانوفهن القنواء وثغورهن الارجوانية يسرن حاسرات الطرف حزينات وراء الجيوش

والرجال دوماً الى الامام ... يفكرون في اوقات الراحة بالايام السعيدة التي يقضونها بعد رجوعهم الى حلب الشهباء وبالمكافئات الكبيرة التي ينعم بها عليهم الامير ، وباذرع السبايا البزنطيات البيضاء التي ستضمهم في ساعات الغرام

وقد وصلوا اخيراً الى قلب الامبراطورية البزنطية وكانوا قد قطعوا القيصرية وتزيندوس اللتين احرقوها وانقضوا كالاعصار او كالامواج على كل من هو حي في تلك البلاد ، وكانت طبولهم تدق فترتاع لها الاسود في غاباتها والطيور في اعشاشها

ونزلوا اخيراً على مسافة بضعة ايام من بيزنطة عروس البحار التي كانت تستدعيهم بقببها العظيمة الذهبية ، وبكنوزها العجيبة الشهيرة وبقصورها البرفيرية الفضية وبكنائسها المناطحة السماء ذات الاجراس الجبارة والاعمدة الموشاة بالذهب والميا كل الذهبية ..

بيزنطة جوهرة القرن الذهبي وعروسة لبحار . بيزنطه ربة الجمال وسيدة المدن

بيزنطة التي كانت تظهر من بعيد لابناء الصحراء كأنها جنة الخلود التي تجري من تحتها الانهر وتغتسل بمياهها حوريات الجنان وقد اعدها الله مكافأة ونعيماً لهم

... وكم كان الحلم عظيما في اكتساح الفرق البدوية لبيزنطة المدينة التي يحرسها الله

ولكن هؤلاء الرجال ابناء الصحراء لم يتقدموا الى الامام ولم يدخلوا في التجربة ، فقد كان ذلك عليهم محفوفاً بالاخطار وامر الامير المنتصر رجاله بالوقوف ...

وضرب سيف فسطاطه الارجواني ذا الاعمدة الماطحة السحاب والستائر الحرائرية الحمراء في الارض البيزنطية وبالقرب من عاصمتها عروس البوسفور، وامر جيوشه بالراحة

واخذ شعراؤه لذين كانوا يتبعونه ينشدون بقصائد ممتعة انتصاراته ووقائع غزواته وهو يسمعهم متمدداً على الطنافس الاعجمية ، يحيط به قواده ورجال حاشيته يتصاعد من حولهم البخور من المباخر العالية الذهبية ، ويشربون الخمر النادر المثال في اكواب من الذهب الابرز ، وينظرون بتعطش الى عشرات الحوريات المرتديات السراويل المزركشة والعاريات الصدور والاكتاف يرقصن امامهم على نغمات الربابة والعود فيتمايلن

كأنهن اغصان يحركها النسيم بكل دلال ولذة

واخذ الامير يحيي لجوده الحفلات الباهرة الجميلة حيث كنت ترى قوافل الاسرى تمر امامهم حاملة الكنوز الثمينة التي اكتسبها الامير في حملته على بيزنطة من صحائف الذهب وصناديق الفضة والجواهر الثمينة والحرائر النادرة والسجادات الفاخرة واواني الاكل الذهبية والاسلحة المرصعة بالحجارة الكريمة على اختلافها

وتأتي اسراب من النساء اصبحن اسيرات المنتصر يرقصن على ضوء القمر فيخيل للجنود انهن حوريات الجنان

ويرتفع من حين لآخر نشيد شاعر في مدح الامير وجنوده فيتجاوب صدى شعره في زقزقة العصفور وغناء البلبل

وقد خيم القوم في واحات عجائبية تجري في حدائقها الانهار وترتفع خمائل رياضها باهة واجلال نحو السماء ؛ وفي اشجارها الاثمار من كل فاكهة زوجان ترطب الاحشاء

وكانت هذه الحفلات المتتابعة كأنها نشيد الانتصار والظفر

١٣

ممرات اندراسوس

اذا مر في رأسك سالماً فليست الثروة التي اصبتها سوى قطعة صغيرة من معرك قصصتها دون ان تشعر بالالم « الف ليلة وليلة »

جاء دور الاهتمام والاستعداد للرجوع فقد كان من الواجب

حمل كل هذه المكاسب والسبايا التي نهبتها الجيوش من المدن والقرى فصادر جيش الامير جميع الحيوانات واصطنع العربات الضخمة الكبيرة وملأها من التحف والكنوز والطنافس والاطالس واستعد للرحيل

وفي ذات صباح قام الركب نحو بلاده حاملاً تحت شعاعات الشمس المحرقة انتصاراته وافراحه واتعابه وكنوزه، وسارت الفرق من فرسان وخيول وعربات وبغال وحمير وجمال وبقر ومتطوعة وبدو واكراد وعرب نحو الجنوب ، وكانت تسير على مهل وقد اثرت فيها المشقات التي تحملتها اثناء الحروب السالفة والليالي الحاملة الساحرة التي قضاها الجنود بعد الانتصار وقد زاد في مشقة السير الوف المركبات الحاملة المكاسب والتي كانت تسير ببطىء زائد

انما كان الفرسان والجنود وقد اسكرتهم خمرة الانتصار يسيرون دون حذر تحرسهم الصحراء ورمالها المحرقة

اما الامير فقد بقي على نشاطه وقوة بأسه فكان يسير في طليعة الفرق كانه الطود الراسخ لاعباً برمحه مكراً مفراً على ظهر براق اجمل خيول نجد ، هاتفاً هتاف الظفر لجنوده الذين كانوا يحيونه بهتافات الفرح البالغة عنان السماء

انما وا اسفاه فقد كان ذلك السكون حول الفرق خداعاً والعدو بالرغم عن انكساراته العديدة لم يقل كلمته الاخيرة بعد

ونهم القائد البيزنطي ليون فوكاس عندما رأى جيوش الامير الجرارة انه لايستطيع الانتصار على خصمه بالقوة فالتجأ الي الخديعة وفر من امامه، ولكنه بينما كان الامير يسير نحو بيزنطة منهمكاً باحراق المدن والقرى بعد نهبها ، التجأ مع بقايا جيوشه الى جبال طوروس حيث اختفى واياها في ممراته المنيعة باقياً هكذا وراء الفرق العربية ؛ واستنجد بقواد كبادوسيا واسيادها فانجدوه وتحصن الجميع في تلك الممرات المخيفة

وهكذا فبينما كان سيف الدولة يعتقد أن العدو قدتشتت في عرض الصحراء ، اذا به ينتظره في حصن طبيعي من الجبال لابد لجيوش الامير العربي من المرور بها

وكان ليون فوكاس يعرف يوماً يوماً بحركات جيوش سيف الدولة وعلم اخيراً انها ستمر بممرات اندراسوس في سفح جبال طوروس فانتظرها هنالك

ومع ذلك فان احد الخونة البزنطيين الذين عرف بجلية الامر جاء الامير ونبهه الى الخطر الذي ينتظره

وا أسفاه !! لماذا لم تعبأ ايهـا الامير بكلام الرجل ؟ وهل نسيت ان بيلتذا لؤلؤة الصحراء الوضاحة تنتظرك في قصر التماريج ؟؟ وهل نسيت ذراعيها حول عنقك كأنهما طاقات الزهور ؟ ايها الامير انك بعدم اهتمامك بتحذير الرجل تعاند القدر ؟ فالذي كتب وما قدر يكون وما من احد

يستطيع ان يتخلص من اليوم الذي كتب له

ولكن الامير يكره الخونة والخيانة، ويحب الانتصار على ضوء الشمس بصراحة وجلاء، وقد نظر الى الخائن البيزنطي وقال له : انت ما جئت هنا تحذرني من خطر ينتظرني عن حب ومودة بل انك تتطلب مكافأة من اجلها خنت سيدك فتستحق بعد هذا ان اجعلك طعاماً للثعالب، واليك المكافأة التي تنتظرها

وشهر الامير سيفه وضرب الرجل فشطره قطعتين

وبعد هذا نظر الى قواده وقال ان ليون فوكاس الحية الرقطاء ينتظرني غداً في ممرات اندراسوس، كامناً لي مع فرقه هنالك، وانا سائر اليه

قال عبيد : انما يامولاي الموت ينتظرنا

فابتسم الأمير وقال : سترى من هو اسرع، الموت او انا

قال فيروز: انما هذه مغامرة يامولاي

قال الامير : وهل انت خائف يارجل ؟ الى الامام ايها القواد ان ليون فوكاس ينتظرنا ، وخذوا يا عبيد وندجا وفيروز رأس الفرق وسأبقى انا في الوسط حيث الخطر اقرب واشد ، كيما يعرف هذا الملعون انني لا اخاف

قال عبيد : نحن طوع امرك يامولاي انما اعلم اننا نسير نحو موت اكيد ، فليجعلك الله يوماً غير نادم

وساروا الى الامام وفي قلوبهم حزن الموت ، لشدة خوفهم

على سيدهم...

وعند منتصف النهار دخلت الفرق ممرات الجبل فكان كل شيء ساكناً ولم يكن يسمع في ذلك الوعر المخيف غير وقع حوافر الخيول وتدحرج الحجارة نحو الوادي العميق

فنظر الامير الى ما حوله مطمئناً وقال :

ـ لقد خدعني الرجل ؛ فلا عدو ينتظرني هنا

ولكنه ما كاد ينهي كلامه حتى ضجت فجأة اصوات موسيقى بلغت عنان السماء وما هي بضع دقائق حتى كانت جيوش العدو تحيط بفرق الامير باجمعها ، مشرفة عليها من اعالي الجبال

واخذت الصخور الكبيرة التي اقتلها جنود فوكاس تتساقط على ابناء الصحراء محدثة ضجة هائلة فتصل الى رجال الامير وتسحق جموعهم

وكانت جنود اخرى بيزنطية ترمي من الاعالي ايضاً مشاعل النار بين صفوف العرب محرقة الانسان والحيوان

وصب البيزنطيون في افواه الميازيب الرصاص المذوب فتساقط على رؤوس ابناء المضارب سقوط الصواعق ، واخيراً انفرط عقد رجال الامير وتفرقوا في كل جانب وخافت الحيوانات فاخذت تدوس الجنود بروحاتها ومجيآتها الجنونية وكان كل من ابناء البادية يهرب من جانب وعندما يعتقد انه

قارب النجاة يرى نفسه ايضاً تحت رحمة سيوف العدو ورصاصه ودوماً دون نصب وتعب كانت الصخور الهائلة تتساقط فتفتح ثغراً في قلب الفرق العربية فكنت ترى عناقيد الجثث كأنها في قلب كرمة ، وقد جرت الدماء انهاراً فاصطبغت الجبال بلون الارجوان

ولم يبق من العرب غير القلائل الذين نجوا باعجوبة

وبلغ هتاف العدو في ظفره وانتصاره عنان السماء وكان الامير سكوتاً مطبق الذراعين ينظر الى جيوشه تموت والى اصدقائه يموتون ينظر الى البطون المبقورة والحيوانات المسحوقة والعربات المحطمة وسقطت فجأة على خديه دمعتان حارتان كانهما نقطتا رصاص مذوب وقال:

انتم تموتون ايها الاصحاب ضحية جنوني ، فالتعاسة لي انا الذي لم اعرف ان اعود بكم للسلام بعد ان قدتكم الى الحرب آه لو ان هناك محاربة الرجال فكم كنت قوياً انما هل استطيع محاربة الصخور

ياللتعاسة !! ياللتعاسة !! انني لم اعرف ان احميكم ولا ان احافظ عليكم . . فاين الموت مني الان وقد اضعتكم باجمعكم

واعتلى نحيبه بين ضجيج الصخور المتساقطة التي كانت تقفز من مرتفع الى مرتفع - انما ما من واحد منها اصابه وما من رصاصة اومشعل او سهم لمسه . كأن قوة سحرية غير منظورة تحميه

وكان ليون فوكاس قد رآه من اعالي الجبل، فاشار اليه وصرخ برجاله يقول:

اياكم ان تمسوه بسوء فالموت لمن يقتله لاني اريده حياً

وعرف سيف صوت عدوه المخيف فابتسم ابتسامة وحشية وادار وجهه شطر القائد البيزنطي وصرح به قائلًا

لقد نلت مني بالخيانة الظفر يافوكاس ولكنك لن تنالني حياً

ونظر الامير فاذا بفرسان من البيزنطيين قادمين من باب الممرات اليه، ففتش عن مخرج يهرب منه انما كان ذلك عبثاً فقد احاطت به الجبال من كل جانب وعلى رؤوسها الاعداء بعدد الرمل وعند ذلك استولى عليه يأس عظيم فاستل خنجره ذا القبضة الذهبية من حزامه وكاد يولجه في صدره لولا ان براق لم يجفل فجاة من تحته فنظر الامير اليه وقال

براق يا صديقي المحبوب «كلا» فانك لا تكون مطية لهؤلاء الجبناء وبما ان الموت قريب منا فلنمت معاً

ولاحظ بالقرب منه هوة عميقة آخرها في الجانب الثاني من الوادي وعلوها مائة باع، فهمز جواده وقال له

الى الامام يا براق فلتكن هذه آخر قفزة لنا

وبينما الفرسان البيزنطيون يقتربون وقد كادوا يعتقدون ان الامير اصبح اسيرهم قفز براق بفارسه فوق الهوة وطار الى الجانب الآخر فاغمض سيف عينيه ورأى ثغر بيلتنذ الساحر يبتسم

له ووراجع بثانية واحــدة سيرة حياته باجمها بحوادثها الحربية والغرامية وبانتصاراتهــا العظيمة ، وشعر فجأة بسقوط هائل وغاب عن العالم

وعندما استيقظ بعد حين وجد نفسه ممدداً بالقرب من براق على ضفاف النهر في بطن الوادي ، وكان الجواد العجيب يصهل صهيلاً خفيفاً با قرب من سيده ، والاعداء من الجانب الآخر ينظرون بذعر الى الامير وقد هالهم العمل العظيم الذي قام به لينجو من بين ايديهم . ووقف الامير على قدميه وهو يشعر بدوار كبير في رأسه وقد اسكره الفرح ورأى نفسه بعيداً عن مرمى اعدائه ، انما الجواد النبيل دفع بحياته لنجاة سيده فانه تمدد فجأة وقد اقترب الموت منه واخذ ينظر الى الامير والدم يتدفق من فمه فشعر الامير ان قلبه يتمزق وتساقطت الدموع من عينيه فاخذ عنق جواده بين يديه ثم قال

براق يا صديقي الامين سوف لا اجد لك شبيهاً انت الذي كنت انسل الخيول ، تموت الان لانقاذي ، فانت ايضاً تذهب اليوم ضحية كبريائي ، وتراني الان مضطراً ان اتركك طعماً للثعالب ، يارفيقي المحبوب

الوداع يابراق ، دعني قبل الرحيل اخفف من آلامك في حشرجة الموت

وادار انظاره عنه واخذ خنجره وطعن به صدر براق

اجمل خيول نجد ، ومن ثم استوى واقفاً ونظر الى البيزنطيين فرآهم بعد ان زالت دهشتهم يصوبون اليه سهام اقواسهم فتطلع اليهم واشار بيده نحو الممر الدموي المخيف وقال:

انتم باجمعكم يارفاقي الذين ماتوا لاجلي فلتكن رحمة الله عليكم ؟ . . . وا ما انا فسوف انتقم لكم

وسار لوحده دون جواد ولا اصدقاء ولاجيوش ولاحرس بين الصخور - القلب دام والنفس حزينة

وكانت الغربان قد ابتدأت تحوم حول الجثث

١٤

ذرة السعادة

انت ياروحي غوتين اليوم فان ايدي الحب تلاعبت بك
كما تريد ورمت بسرك الى الرياح والعواصف
« شاعر مجهول »

ومشى الامير طويلا وقد انهكه التعب والنصب؛ وعندما وصل الى سفح الجبال الدامية كان الليل قد ابتدأ يسدل ستائره على الطبيعة كأنه بساط اسود يغطي الصحراء

ونظر سيف الدولة الى المسافات الشاسعة امامه التي تلاعبت بها انوار القمر فخيل له انها بحيرة جبارة جمدت امواجها ، ورأى في الغسق البعيد تلة مظلمة كأنها غطاء اسود منشور فوق

القبور وكانت النجوم في السماء ضئيلة لاتكاد تظهر وقد هبت ريح حرّى تحمل ذرات الرمل المحرقة ، فوقف الامير وقد تلاشت قواه وشعر بألم شديد في صدره حيث اصابه سهم بيزنطي

فضمد بنفس زاهقة الموت جرحه بقطعة من برنسه بعد ان بللها بماء كان يجري بالقرب منه وتمدد في ظل صخر ونام

نام طويلاً مع ان الثعالب كانت تمر كثيرة بالقرب منه وتسمع عواوءها في تلك الارجاء ، ومع ان حفيف الريح في الصحراء كان يصل اليه كأنه عويل النساء يندبن الفرسان الصرعى في ممرات اندراسوس

وعندما استيقظ الامير كان الفجر قد طرد الليل ، وظهرت له الصحراء كأنها صدر من نحاس وقد سكت عويلها ، وبانت ضاحكة فرحة

واستوى سيف الدولة واقفاً ومن ثم سار الى الامام كأن غريزة سرية تقوده الى المقام الامين في تلك الصحراء المشتعلة المتشابهة المسافات

مشى مدة ساعات وساعات عطشاناً جائعاً مشتعلاً ووصل اخيراً الى ربع تائه فلم يعرفه احد تحت هـذه الاثواب الممزقة والوجه الذي لوحته الشموس ولم يجسر على تسمية نفسه وقال انه احد قواد الامير سيف وقد نجى وحده من الكارثة العظمى وكان لايزال لديه بعض الدنانير فاستطاع ان يبتاع حصاناً وبعد

ان أكل اللبن والبلح امتطى جواده وسار نحو حلب

مشى من بلد الى بلد فقيراً بين الفقراء وتعساً بين التعساء ولم يعرفه احد من الذين رأوه فيما سلف بهجاً جميلا يحيط به الفرسان من بني يعرب

وكان يسمع في كل مكان يمر به اخبار المذابح التي يقوم بها البيزنطيون ، ويرى الاهلين من ابناء رعيته في خوف ووجل كبيرين يستعدون للهرب امام العدو القادم بخيله ورجله ، فكان يقف حزيناً بين هؤلاء البؤساء ويقول لهم ان اميرهم لايزال حياً وانهم سيرونه قريباً على رأس الجيوش يطارد الاعداء ويجندل فرسانهم ويسبي نساءهم وبعد ان يقف قليلًا للراحة يعود الى السير نحو الامام ، حتى وصل اخيراً الى قصر له في سفح لبنان

وهناك عرف القوم بنفسه واخذ حاشية صغيرة معه ومشى نحو حلب

وذات ليلة رأى مدينته امامه ضحوكة تحمل قببها كالتيجان وماراتها كالصولجانات فسقطت الدموع من مقلتيه عندما فكر انه يرجع اليها الان كسير القلب والسيف بعدان انتصر على عدوه وكسب جميع كنوزه وارزاقه

وعندما عرفه القوم قامت حلب باجمعها تهتف له وتقدس اسمه ، وقد زال عنها الخوف

الامير حي... تلك كلمة سرت كالبرق من القصور الى

الكوخ ومن المنزل للمضرب

الامير حي ... فالانتصار على الابواب

وخرج سكان الاسواق والصناع والعمال والعذارى الى الشوارع وسجدوا عند مروره ، وبلغ هتاف الفرح عنان السماء واخذت النساء ينشدن ويهللن ويقلن

المجد والشرف لاميرنا العظيم

ووصل اخيراً الى قصره تتبعه الجماهير التي لاتحصى وتقدم اليه نجا وعبيد وفيروز وهم يبكون فرحاً وقد استطاع هؤلاء ايضاً ان ينجوا بانفسهم من ممرات اندراسوس

ولم ينج من الشعراء غير المتنبي وابي فراس وهلك الباقون من ارباب البيان واسياد القريض

وكم كانت عودة الامير حزينة في هذه المرة ؟ فهي لاتشبه بشيء عوداته الماضية

ومع هذا فان الامير لم يضع شجاعته وبقي مع ما اصابه من الكوارث شديد القلب كثير الآمال ؟ وقد سره انه التقى ببعض اصدقائه الذين بقوا في الممرات الدموية ـ كالحسين وعبد الملك وقمر واكراده وجانهشاه وفرسانه وابن ايوب وبدوانه وجعفر ورجاله الدلهميين وصعب وعمر النعمان وكل هؤلاء الذين احبهم واخلص لهم سوف لايحملون الرماح ثانية وقد ماتوا واكلت الغربان والثعالب اجسادهم

انما لاتزل الامال معقودة ولا يزال لديه نجاوعبيد وفيروز وقد تتلاشى الايام السوداء ويأتي يوم الانتقام

وكان يجب عليه ان يستطلع خبر العدو اولا وان يؤلف جيشاً جديداً ثانياً ، وعرف بعد حين ان ليون فوكاس بعد انتصاره الرائع وقف في مكانه لايجسر على التقدم وقد خشي التوغل في بلاد الامير حيث كانت المدن والقلاع تنتظر قدومه لتقوم قومة واحدة في وجهه . ورأى ان ما كسبه من الكنوز والتحف كاف الان فقفل بجيشه راجعاً نحو الشمال

وهكذا زال كل خطر في اكتساح البلاد وكان ذلك في ابتداء فصل الشتاء مما يجعل كل حملة جديدة صعبة للغاية ، على هذا وجد الامير امامه متسعاً كبيراً لتجهيز جيش جديد

فاعطى اوامره لقواده بالعمل وسار ذات صباح الى قصر التعاريج حيث كانت تنتظره بيلتذا اميرة قلبه ولبه

ايها الامير ! ان روح المرأة لايفهمها غير الله فالعاشقة الصادقة ترتاح وتنبسط للكارثة التي ترجع لها حبيبها ولو جاءها خافض الجناح دامي القلب

وكان الامير بحاجة قصوى لقبلات بيلتذا المعبودة وضماتها كيما ينسى مصائبه واحزانه ، وكيما يسلو اشباح الاموات من فرسانه التي كانت تدور حوله ليلاً نهاراً منذ فر من ممرات اندراسوس

كان بحاجة عظيمة الى اكسير الحب ليشفى ، وقد قال عاشق

« اريد القبلات الحارة لتكون بلسماً لجراح قلبي »

وابتدأت حياة جديدة للعاشقين في سكون القصر الاحمر

ورجعت الاعياد في الليالي الباهرة حيث تدور الكؤوس ملأى

من الخمر المعتق ذي اللون الذهبي مثل شعر بيلتذا

وعندما يسطع الفجر ويأخذ الامير اميرته بين ذراعيه

كانت تدور غلايين الحشيش فتخدر الاعصاب وتزيد في الاحلام

وتكثر من الميول فتتراآى من خلالها جنات الخلد ويتصاعد

دخانها في القاعات فيجعل الهواء ملآناً من الملذات والشهوات .

ويأخذ الامير حينذاك ثغر بيلتذا بثغره وتطول قبلة العاشقين

حتى المساء ، والشعراء ينشدون الشعر الغزلي السامي

ويسكب الغلمان الخمر في الاكواب ولسان حال العاشقين يقول

ايها الساقي اليك المشتكى قد عرفناك وان لم تسمع

وتطير قبلات بيلتذا كأنها ازهار ، من لحم ودم حية

وشهوانية وتموت عندئذ في قلب الامير عصافير تذكار ممرات

اندراسوس السوداء

١٥

في المضارب

ضفرت السعادة شعرها تكريماً لنا وقدمت لنا اكواباً
ملأى من اللذة «شاعر مجهول»

ونزلت ساعات الليالي ذات الرداء الاسود على ساعات الايام السعيدة ومضى الشتاء بعد ان نزل مطره بغزارة على الحدائق والبساتين وجاء الربيع بابتسامته السحرية التي تجتذب العصافير من افنانها، فعطر الارض من انفاس ازهاره، واستيقظ الامير ايضاً مع يقظة الطبيعة وقام يستعد للاخـذ بالثار ولتدويخ بيزنطة وقد شعر بدافع سري ان المجد والشرف يختبئان في ثنايا اعلامه، واحس بقبلة الصحراء المحرقة تجتذبه اليها

واحاطت به فرقه الجديدة وظهرت على ملامح رجالها امارات النشاط والبطولة والامل

وذات صباح ترك قصر التماريج مع حبيبته لؤلؤة الصحراء بيلتذا الفتانة راجعاً الى حلب عاصمة ملكه، وعندما اطل عليها وجدها مزدهرة باهرة وقد سطعت شعاعات الشمس على قببها الذهبية ومآذنها البيضاء

ولما استوى الامير في عاصمة ملكه امر بالاعياد والولائم وما هي اياماً حتى زهت حلب جديداً بسيف الدولة واخذ هذا الاخير يرحل عند كل صباح للصيد الى يمينه بيلتذا الحسناء ومن ورائه

شعراؤه وقواده ، يحمل كل منهم صقره ، بازه ، وكانت بزاة الامير وصقوره مشهورة في كل البلدن ، وقد جاءته من داري ابن الاحمر الشهيرة ، ورفض مراراً بيع احداها بالوف الدنانير

وكان الامير صياداً عجيباً ، فما من احد يعرف كيف يقود الصيد مثله وقد امتطى جواده « قتال » الذي انتقاه بلون وعمر وهيئة « براق » اجمل خيول نجد

وكان من المستحب المدهش رؤية سيف الدولة يصطاد ببزاته وصقوره التي كان لها تعلق خاص به كأنها شاعرة بكل ما عندسيدها من الجمالات فقد كانت ترجع اليه حاملة الفريسة في فمها فتطأ على كتفيه وذراعيه منتظرة ابتسامة منه

وعند ذاك ينشد الشعراء قصائدهم في مدح الامير وبزاته وخصوصاً الصقر يشمور ، فتضحك عند ذلك بيلتذا ضحكة حارة شجية تملاء الربيع سعادة وفرحاً

وبعد ان يغسل الامير طيوره في النهر يرجع وحاشيته الى حلب وهناك يأخذ طهاته ما اصطاده الامير من الطيور فيطبخونها الواناً لذيذة نادرة الطعم ، وتبتدىء ساعتئذ الاعياد الليلية ولا تنتهي الا عند الصباح فترقص النساء في اثنائها عاريات كأنهن حوريات الجنان وينشد الشعراء قصائدهم كأنها تسابيح الظفر ويترنم الموسيقيون باغانيهم كأنها ترانيم الملائكة ويقص الندماء تكانهم والظرفاء حكاياتهم وعندما تمزق الغزالة ستائر الليل

يأخذ الامير بيلتذا بين ذراعيه ويضطجعان حتى مطلع النهار
ويستيقظ الامير فيسرع مع اميرته الى امتطاء جواديهما وتسير من ورائهما الحاشية الى التلول التي اشعلتها الشمس وهناك يضرب سيف الدولة فسطاطه الارجواني ويبتدىء الصيد
وكثيراً ما كان الجميع يقضون الليالي ايضاً في الفسطاط الاحمر خارج المدينة يصطادون الوحوش المفترسة التي كانوا يجتذبونها باضرام الحرائق الكبيرة

وكان الامير في حلب مجموعة حية من حيوانات الصحراء لا تقل عن الالف حيوان من اسد وفهد ونمر وذئب

وكان يصادف بعض الاحيان ان يقوم الامير بغزو على القوافل البيزنطية او البدوية المعادية فينال ما يريد ويسوق امامه الكنوز والغنائم والسبايا مما لا يقدر بثمن ، فينظم فيه المتنبي وابو فراس وغيرهما القصائد الرنانة البليغة التي لاتزال حتى اليوم خالدة لاتموت . وبقدر ما كان الامير مخيفاً لاعدائه بقدر ما كان محسناً لاصدقائه وعطوفاً عليهم

ولكنك ايها الامير الجميل العذب !! هل ظننت ان السعادة دائماً خالدة ?

وعندما جاء الصيف سار الامير على رأس فرقة لينتقم لرجاله الذين قتلهم البيزنطيون في ممرات اندراسوس ؟ وقد امر هدار متعهد المؤن بان يسير بالارزاق امامه واناب عنه في حلب

قراقولاه وزيره الامين وسار نحو الشمال

واهاً ! كم كان رجاله على ظهور خيولهم ذات السروج اللماعة يعتزون بالسير ورائه ، وقد تدرعوا بالقمصان الزردية وتمنطقوا السيوف الصقيلة وحملوا الرماح الطويلة ذات السنان البراق وسارت امامهم الطبول تضرب

والامير بجماله الفضاح قد اشرق وجهه كالشمس تحت عمامته التي رصعت بالماس واللؤلؤ يسير عظيماً كبيراً على رأس جواده كأنه يطير في غمامه ، وقد احاط به قواده العظام من مبارك لحسين لبصرة حامل السيف لندجا لعبيد لفيروز

فيخرج الناس من القرى والمدن حاملين للفرق المارة الهدايا والمؤن وتنثر العذارى على رؤوس الابطال اكاليل الغار والورود ويصعد المؤذنون على مآذنهم فيسمعون السماء باصوات شجية اناشيد الدعاء بحفظ اميرهم وانتصاره على اعدائه

ولم تنتصر هذه المره الخيانة على النبالة والشرف ومرت الفرق المنظمة العجيبة في السهول والوديان واجتازت ابواب كليكيا دون ان تجد معارضاً

واخيراً امر الامير بالراحة فضربت الخيام على ضفاف النهر المترقرق الماء وتمدد الرجال يطلبون النوم

وعند ذاك دعا سيف الدولة قواده وقال لهم :

ايها الاخوان ! لقد قتل العدو بالخيانة رفاقكم النائمين الى

الابد تحت الرمال الذهبية بعد ان نالت الثعالب والذئاب من لحومهم حصصها ولكن ارواحهم لاتزال حية تتغنى في الدوحة والخيلة تخدمها الحوريات السماوية ويحمي ذمارها الملاك رضوان حارس السماوات فليرحمها الله ويسكنها في فسيح جنانه ، اما نحن فالواجب علينا ان ننتقم لهم ، فلنكن بدون شفقة في بلاد الروم ... وانت ايها الموت تلذذ منذ ألان فاننا سنطعمك ارواح هؤلاء الطغاة ونرسل لك فتياناً جميلين فتضع قبلاتك المخيفة على جبهاتهم

هذا ما قاله الامير ... فهتف له الفرسان ورفعوا الرماح عالياً واخذوا يتغنون باناشيد الحرب وصرخوا اخيراً صرخة واحدة دوت بها الجبال والوديان وراحت تنبيء البيزنطيين على الحدود ان ساعة الانتقام قد ازفت

١٦

الخمسون

ليغدق الله على سيف الدولة نعمه الدائم ولفضله
على الجميع في حياته « بدوي من الصحراء »

وتوغلت الجيوش بقيادة الحمدان المعتز في الارض البيزنطية وابتدأت حالا بالطعان وكانت فرق العرب تنقض كالغرابان على القرى والدساكر فتنهبها وتحرقها اهلوهـا منها نحو فتراهم

يناسون كأنهم قمان اسود مخيف

وانكسر البيزنطيون في كل المعارك ، مع انهم اظهروا في معارك شديدة شجاعة كبرى وحاربوا كالاسود ولكن ما يستطيع رجال بيزنطة في مقاومة ابناء المضارب ؟ الذين يحاربون لينتقموا لرجالهم الذين ذهبوا ضحية الخيانة في ممرات اندراسوس

وليطالع القارئ قصائد المتنبي في هذا المعنى يرى فيها ابلغ وصف لتلك المعارك التي فـاق فيها رجال سيف بشجاعتهم وفروسيتهم جميع جنود الارض

فالى عبد والطفر السيف الذي انحنت امـام بطوليته عشائر بلدان العرب . وقد رافقه المتنبي في معاركه وهو ذاك الشاعر الجهنذ الذي رددت ربوع الجزيرة قصائده في مدح سيف الدولة ورجع مع سيده ظافراً يحمل الغنائم ويقود السبايا من بنات بيزنطة ذوات الاعين النجلاء والخدود الموردة . ومن مثل المتنبي عرف ان يصف جمال الانتصار وملاحة السبايا وبعد ان قضى الامير ورفقه اشهراً غازين فاتحين في بلاد الروم وانتقموا شر انتقام من الذين قتلوا اخوانهم ورفقاءهم الذين رقـدوا بكل جلال في ممرات اندراسوس رجعوا على اعقابهم سكارى من خمرة الظفر يحملون الجنود ويقودون الاسرى

ولم ينتظرهم هذه المرة احد في الممرات المخيفة ولم يكن لهم من عدو ... غير الخماسين ريح الصحراء السموم ، فانه

التقطهم في منتصف الرمال وارتجف الفرسان الابطال امامه وهم الذين دوخوا بيزنطة ، فبينما كانوا سائرين وقد اخذ التعب منهم مأخذاً عظيماً ، وكان قد مضى عليهم ايام وهم في وسط الصحراء اذ يرون ذات مساء لون السماء يتبدل ، وتهب عليهم ريح هوجاء مشتعلة مجففة فتلسع وجوههم كما يلسعها لهيب النار واخذت السماء تصفر حتى اصبحت كوجه ميت ، فاستولى على الجمال والحيوانات شبه جنون منها ما قطعت قيودها وسارت في الصحراء لاتعي على شيء ومنها ما رقدت على الرمل وقد وضعت رأسها بين فخذيها كأنها تريد ان تحميه من نار الريح

وعندئذ صاح الجنود بصوت واحد مستعيذين بالله

ـ الخماسين الخماسين

ولم يكن هنالك من جبل يلتجأون اليه فضربوا مضاربهم واختفوا في ظلالها ولكنه لم يمض غير القليل حتى تضاعفت قوة العاصفة فجملت رمال الصحراء وحصاها وجاءت تضرب بها المضارب فتقتلع الملتجئين اليها وتملء الفم والعين والاذن والانف وتعمي البصيرة وتجرح الخد وتخنق الصدر ؛ فكنت ترى بعض الرجال في حشرجة الموت وقد اكتنفتهم الرمال ودفنتهم احياء

• وقد فقد اشد الرجال شجاعة وصحة كل حركة امام هذه الصحراء الهائجة المخيفة المتحركة التى كانت رمالها تروح

وتجيء كأنها امواج البحر المتلاطمة

ومضت ايام والجنود تحارب الطبيعة وعناصرها ، ومع ذلك فالعاصفة لم تهدأ وكانت تزداد بعض الاحيان فتحجب نور الشمس وتجعل النهار ليلاً ، وقد جفت الاجسام واحترقت الاكباد وازداد العطش وقلت الثقة بالنجاة واستسلم القوم للخالق ، حتى كان يوم هدأت فيه الطبيعة ورجعت الصحراء الى جمودها وسكونها فصعدت من الصدور زفرة حملت اجيج النار الذي اشعلها ، وعندئذ ذبح الجنود الجمال وشربوا من دمها ليطفئوا عطشهم المخيف . وبعد ان اغتذوا بلحومها ساروا الى الامام فشعروا ان النسيم كله حياة وآمال

وكان يخيل اليهم وسط الصحراء انهم يرون الواحات الخضراء امامهم تجري في وسطها الينابيع المنعشة وتنمو في ارضها اشجار البلح والموز

انما كل هذا كانت توحيه اليهم مخيلاتهم الملتهبة وقلوبهم المحترمة ؛ وهم تائهون في ذلك الاوقيانوس الرملي الذي لا حدود له وقد نسوا بين انبساطاته القاتلة المجد والظفر .

١٧

السفارة

ا ت بل ءلامجادلاثل الفوز والنصار وهتف النأس لنا هت فـ الطير وقد
حمنوا في صراحهم يشرى رحوعنا الى الوطن «الف ليلة يلة»

وبعد مشقات ونصب ومسير ايام طويلة وصلوا الى سوريا حيث وجدوا بين السهول الخضراء انهراً حقيقية ارتووا منها واعتسلوا بها ، واثماراً لذيذة ذهبية تشبه المصابيح المتنعلة ونسوا في ظلال الخمائل الاتعاب واخطار الحرب وحر الصحراء وشدة لارياح

واطلوا ذات صباح على حلب الشهباء التي تراءت لهم بيضاء كالثلج في الافق البعيد وقد تصاعدت منها اعمدة شفافة من من البخار فكانت كأنها اعلام تخفق هاتفة الفرق الظافرة

ولما علم الاهلون بقدوم الامير ورجاله قاموا الى لقائه نساء ورجالا كباراً وصغاراً ،ودخل الجند الى المدينة يحمل بين طيات اعلامه النصر وعلى ظهور خيوله ونوقه المكاسب والسبايا

ولم يكن سجن المدينة كافياً للاسرى فوزعهم الامير على المدارس التي جعلها حالا سجوناً ، وقد كان بينهم من اكابر البيزنطيين واشرافهم العدد الكبير

وما كاد الامير يتوسط عاصمته حتى رآه الناس يترجل عن جواده وقد اعياه التعب وهزل جسمه من كثرة ما لاقاه

من الاهوال ، ويذهب توا الى حبيبته وبهجة قلبه الاميرة بيلتذا . وكانت هذه تنتظره نشوى من السعادة شاعرة من قلبها بقرب قدومه ، وقد بان في عينيها اللتين اتسعتا جداً من شدة الفرح دلائل الانبساط واحاطت بها نساؤها من كل جانب ينشدن لها الاغنية القائلة : « رأيت الفجر راقصاً ، يابنات العرب ، على وجه الامير حبيبي »

وكانت هنالك بشرى عظيمة تنتظر الامير فان الاميرة بيلتذا كانت قد ولدت له ابنة مدة غيابه بينما كان يحارب بيزنطة ويقتل رجالها ويسبي نساءها

والطفلة الصغيرة اقرب الى الملائكة منها الى البشر ، فهي تشبه حوريات الفردوس اللواتي رقصن على ضفاف الانهر السبعة يوم ولادتها ، وهي التي ستحمل بعد ذلك عند صوتها لقب « مليكة الجمال »

وعندما عرف سيف بهذه النعمة التي اغدقها عليه الله طار فرحاً وامتلأ قلبه حبوراً ، وابتدأ يقتطف بعد ايام الشقاء والتعب ازهار السعادة والراحة بين ذراعي الحبيبة

فيراه الناس احياناً يسكب دموع الحب والحنو من شدة انبساطه وارتياحه

واقيمت بعد ذلك الاعياد والحفلات العظمى لذكرى ولادة الاميرة الصغيرة مليكة الرجال وبمناسبة رجوع الامير

ايبها منتصراً. واغدق الامير نعمه على رجال جيشه ووزع على شعبه المكاسب، والخوابي الملأى من شراب السكر والازهار

وامر الامير باطعام الفقراء واعطائهم الكساء وادخالهم الى الملاجيء فاستحق على ذلك الادعية الحارة على المنابر وفي المعابد والجوامع ، وقضى الشعب ايامــه في راحة وبحبوحة العيش وعندمــا كان ياتي المساء تبتدئ الاعياد الساحرة الزاهية ، فتصعد نحــو السماء الاغانى الجميلة والموسقيات الشجية وتشتعل فوق القبب الحرائق الكبيرة فتجعل من حلب كوكباً ساطعاً تستضيء الصحراء من نوره الوضاح. وكان يخيل للقوافل التي تدخل حلب يومئذ بانها وصلت الى مدينة الاحلام الذهبية والغرام اللازوردي . وكل من يدخلها غريباً كان او قريباً ، هو مقدس ينزل عليها ضيفاً معززاً يأكل ويشرب وينام في قصر الامير

وكان سيف وبيلتذا يتلذذان بقولها : انزرع السعادة حولنا فهي غرسة نادرة جحودة لاتنمو دوماً حيث يقع بذارها فلنزرعها المجميع ولنعطي ابدأ من سعادتنا الى كل الناس فالشيء الذي يعطيه الانسان ليسعد غيره دون ان يفتقر هو الكنز الذي لايفنى

وظلت المدينة مدة ايام غارقة في بحور السعادة والانبساط وكانت البلابل نفسها تتغنى عالياً بتغاريد الغرام والحب حاملة

الى الصحراء زفراتها المشتعلة من نار الجوى

وذات صباح وصلت سفارة بيزنطية مؤلفة من وفد عديد من كبار النبلاء لتفاوض الامر في امر الاسرى والمقاوضة عليهم ، فاستقبلها الامير في قاعة العرش القائمة على أعمدة من الفضة والمستظلة بقبة من الذهب ذات النقوش اللازوردية ، وكان جالساً على كرسي موشى بالحجارة الكريمة وعلى رأسه عمامته المزركشة بالماس يحيط به عظماء دولته وهم مرتدون ملابسهم الغنية الحمراء وكان خمسة آلاف حارس انتقاهم الامير من بين اجمل الرجال والبسهم افخر الملابس مصطفين سياجا باهراً من باب المدينة الى قصر الامير ، حيث خيم الفرسان بدروعهم اللّامعة ورماحهم الطويلة

وقد وقف على السلم الكبيرة الوزراء والقواد والشعراء ورجال الفنون والحكام . ومشى امام سفراء بيزنطة الف عبد وعبد ينثرون الزهور ويرشون العطور وقد حمل بعضهم مراوح كبيرة من ريش النعام يلعبون بالريح فيها فوق رؤوس رجال الوفد البيزنطي

وصدحت الموسيقى ودقت الطبول وفرشت الارض من سجادات بخارى وبغداد والشام وخرسان وتغطت الجدران بحرائر بعلبك وطنافس حمص وحماه ، وجلس الامير على عرشه . وبين قدمية طيور النعام ذات القلائد الذهبية تتخطر بكل جلال

وعندما دخل رئيس السفراء تتبعه معيته الى قاعة العرش قال الامير سيف الدولة :

عليك السلام ايها الغريب انت الان ملك في هذا القصر وقد اصدرت الاوامر لعبيدي وضباطي بان يخضعوا لك كما يخضعون لي ، ستقيم في قصري مع رجال حاشيتك ، واهبك منذ الان مائة امرأة من السرائر تخدمهن الف جارية وانت حر طليق هنا تعامل كما يعامل الملوك وتشترك هذا المساء بوليمتنا الكبرى التي اقيمها اكراماً لك واذا تمنيت شيئاً فكن على ثقة بانه كائن حالا ، انا اسمع جيداً ما اقوله لك ، قد كلفت ابا تغلب وزيري ان يملي عليك شروطي فيما يختص بالاسرى ولك عشرة ايام تعطيني جواباً ، فاذا مضت هذه المدة ولم اكن مرتضياً تصبح ملكاً شرعياً لي وعند ذلك اصلبك على عود عال في وسط المدينة ، ومن الان حتى ذلك التاريخ انت ملك في قصري

فاحنى السفير رأسه علامة القبول واشترك في الولائم وحفلات الصيد وعامله الامير معاملته للخليفة نفسه ، ولكنه ــ اي السفير ــ رحل في اليوم التاسع خلسة حاملًا الى بيزنطة تذكارات فريدة عن عظمة سيف الدولة وكثرة غناه وجميل ضيافته

وجرى تبادل الاسرى حسب ما اراده الحمداني ابو الحسن ورجع الكثيرون من جنود العرب الذين كان القوم ظنوهم

صرعوا في ممرات اندراسوس ، وكذلك اطلق الامير سبيل نبلاء وعظماء بيزنطة الذين ساروا نحو الشمال ولم يكن قد مات منهم غير قسطنطين برداس القائد الشهير نجل القائد برداس فوكاس الذي رثاه شعراء العرب بقصائد رنانة بناء على طلب الامير الذي احب بهذا العمل ان يظهر ظرفه وجميل شعوره

وكان قد سلم القائد الميت الى نصارى حلب الذين صلوا على جثمانه حسب طقوسهم المقدسة وحنطوه وارسلوه الى بيزنطة ترافقه فرقة من حرس سيف الدولة

١٨

صعود المليكة

« ايها المار السائر في سبيل الله ، لا تطأ هذه الارض حيث تنام الى الابد ابنة استعدها الغرام » «قول عربي »

وعطرت الليالي الحارة حياة سيف وبيلتذا فجعلتها صفحة حب وهوى مستكملة ، ومرت الساعات والايام كأن انفاس السعادة تنفخ في قصر الغرام ، فلم يشعر العاشقان بمرورها

وابتسمت لهما الملائكة فسكرا من نشوة ابتساماتها ، ونسيا ان في الخارج عالماً غير عالمهما وان الشقاء على الباب ينتظر دوره ليدخل . فوا اسفاه ! ... جاءت ليلة — نشير اليها ونحفظ تاريخها بحجر اسود — كانت ليلة التعاسة واليأس

كان الامير واميرته راجعين من الصيد ـ الاول يمتطي جواده « قتال » وبيلتذا تمتطي فرسها « زهيرة » وكانا يسيران بعذوبة وسكون في سفح الوادي بين ازاهر الاقحوان البيضاء وفي ظلال اشجار الارز الباسقة التي كانت تتدلى اغصانها الكثيفة كأنها برار جوية

وكان النسيم عليلاً رطباً بعد ساعات النهار الحارة ؛ وكانت بيلتذا تقترب من وقت لاخر من سيدها وتقدم له شفتيها الحمراوين فيطبع الامير عليها قبلات من نار

وعندما وصل الى حدائق المدينة البيضاء شعرت بيلتذا برعشات من البرد تجري في جسمها ؛ فلم تعلم الامير بذلك خوفاً من ان يهتم لامر قد يكون بسيطاً ؛ انما اصابها دوار شديد من الحمى بعد ذلك ؛ وقضت الليل وهي في اشد حالات المرض والعرق البارد يتصبب من جسمها الجميل

ومضت ايام ومرض الاميرة يزداد شدة . وكان سيف الدولة لا يفارقها لحظة وهو جالس بالقرب منها وقد خفق قلبه حزناً ودمعت عينه حباً ؛ وهو يرى الحبيبة ممددة على فراش الحب ضعيفة هزيلة وهي التي كانت تهز ذلك السرير هزاً شديداً في حالات ملذاتها وشهواتها

وقد احرقتها الحمى فجعلت شفتيها بلون اكثر الزهور احمراراً وخديها بلون الزئبق الاصفر ، واصابها هذيان مستديم

لاتني من بعده ولا تدرك . وعبثاً جاء الشعراء ينظمون لها اجمل قصائدهم والمغنون ينشدونها اشجى اغانيهم والموسيقيون يسمعونها أسمى اناشيدهم ، فلم تكن تسمع ولا ترى ، وكانت عندما تستيقظ فترة قليلة تأمر باخراج الجميع وتبقى وحدها مع حبيبها الامير الفتان

وجاء سيف باعظم العرافين ورجال الطب ، ووعدهم بالعطايا الجزيلة والمكافآت العظيمة والكنوز النفيسة اذا استطاعوا شفاء الاميرة ، وكان على رأس هؤلاء النجاشي الحلبي طبيب الامير الخاص . فكانوا يقتربون من لؤلؤة الصحراء ويتفحصونها فتبان في اعينهم امارات اليأس والحزن

والأسفاه ـ كل شيء مكتوب ـ ومن يقف في وجه القدر المحتوم ، فكل كنوز العالم وجميع تهديدات الامير لاتنقذ بيلتذا الجميلة بين النساء

ويستطيع العرافون والاطباء ان يتفحصوها قدر ما يريدون وان يسقوها الادوية وعصير الاعشاب على قدر ما يستطيعون ولكن كل هذا لايشفي قلبها المفعم بالحب ولا يرجع اليها متانتها ولمعانها الصافي الساحر

****

« نشدد ياأميري وكن قوياً فها ان الموت على الباب ينتظر الساعة القريبة ليدخل ؟ ... ويقبل ثغر العشيقة التي تعبد

« الا تسمع من بعيد وقع حوافر جواد عزرائيل الرهيب الذي يسرع عاجلا ليختطف روح لؤلؤة الصحراء مليكة قلبك؟ ها هو قد اقبل وسيخلو البيت من بهجته ولا تتغنى فيه الملائكة بعد اليوم اغاني الحب والهيام

الا انظر ياسيدي، الى حبيبتك بيلتذا الجميلة وردة الحدائق السامية والرياض العالية .. الا ترى كيف يصفر خداها الورديان ويتلاشى جسمها ذو اللون الياسميني المعطر بالند والزنبق ؟

****

وامتلأ قلب الامير سواداً فجلس دون حراك بالقرب من معبودته التي حدقت بعينيها فيه كأنها تريد ان تستصحب الى الابدية في مقلتيها صورته المحبوبة

و كانت تبتسم له من حين الى آخر بالرغم من الآلام المبرحة التي تشعر بها ، وتحدثه بصوتها الضعيف الشجي عندما كان الهذيان يزول عنها حيناً ، فتقول له :

ــ يا اميري... اميري العذب الجميل، يخيم الان فوقي جناح الظلام الابدي الرهيب فانا اسبقك اليوم في طريق القدر المحتوم حيث سأعد لك قصراً جميلا تسكنه في اللانهاية ، وانا ذاهبة الى فردوسك بعد ان جحدت فردوسي ، وعند قدومك اليه بعد العمر الطويل سوف تجدني على الباب بانتظارك بدلا من الملاك رضوان

فانتحب سيف على يدها وقال:

يا مليكتي ومعبودتي ...انني اعطي ملكي وحياتي لانقاذك ولو كان رسل الموت الرهيب منتظرين اقمت لمحاربتهم وقتلتهم عن بكرة ابيهم

وابتسمت بيلتذا بشفتيها اللتين ابتدأتا تفقدان لونهما وقالت : لا تخف يا اميري النبيل ، فانا لا اموت بل اصعد حية الى فردوسك الذي تجري فيه الانهار ، وهناك سوف انتظرك واعد لك فراش الحب الوثير تحت ظلال الاغصان الدائمة الازهار وعند ضفة الانهر العسلية المياه ، ولا يكون بعد ذلك لا ليل ولا نهار بل سعادة دائمة باناشيد سماوية ونسيم معطر وابدية سرور وابتهاج

ثم ابتسمت واتسعت عيناها امام الرؤيا السماوية التي تراءت لها وقالت :

اني ارى ...اني ارى البراري الخضراء الفسيحة كالصحارى وارى الازهار اكواماً كالجبال والسواقي بيضاء كالثلج وعلى الاشجار الزاهية من كل فاكهة زوجان ، وارى الحوريات السماويات يسرعن الينا منشدات ... آه ! يا اميري ! يا اميرى الجميل ، الا تراهن الان بالقرب مني وقد اخذن يدي بين ايديهن الناعمة كالمخمل والاطلس .. ها انهن يقدنني نحو السماء ، هن يحملنني على اجنحتهن الحريرية وقد تعطر الجو حولهن بالند

والصندل ... فاين انت يا اميري الحبيب المعبود اين انت ؟

فجثا الامير على قدميها واخذ يديها بين يديه وقال باكياً: ان قلبي يتمزق يابيلتذا ياسواد عيني وسويداء فؤادي

وتابعت الاميرة هذيانها فقالت . . اری الازهار بحدائق لانهاية لها واری ضفاف الانهر تظللها اشجار البلح من كل جانب فتعال يااميري بين الياسمين الفاخر والاقحوان الزاهر والزنبق الممشوق ، تعال نقتطف ثمرة الحب الشهية

الا ترى الابواب المجيدة والملاك ذا السيف الناري ؛ ينتظر قدومي اليه ، فهل هو انت يااميري الذي ينتظرني هناك

اشعر انني الان ملأى من السعادة الابدية التي لانهاية لها فتعال يا اميري العذب الجميل؟؟ الا تسمع ندائي يا غرامي وحبي ومقلة عيني ...

وسقط رأس بيلتذا ملكة الشهباء دون حراك على كتف الامير ، وظلت شفتاها تبتسمان واقتطف الامير عنها القبلة الاخيرة ، وبعد ذلك جلس دون حراك وقد اخذ جسد الاميرة بين ذراعيه واخذت عيناه تقطران دمعاً ساكناً محرقاً

وبعد ساعات . . . ساعات عديدة حرك رأسه ونظر الى الباب فرأى عبيد امامه ينتظر اوامره

ورفع الامير بنظره فكانت التعاسة في ساعات قليلة قد حفرت خنادقاً في جبهته وخديه وبانت في عينيه دلائل

الشقاء والجزع

وتقدم من خادمه الامين فوضع يده على منكبه وقال له:

ـ عبيد ـ يا صديق قلبي وحبيبه، لقد فقدنا نجمنا السعيد فالتعاسة بعد الان تكون نصيبنا

١٩
الجهاد

اذا حاولوا افتراسي اصبحت وحشاً ضارياً « عنتر »

كل شيء مكتوب ولن يمحى يا اميري !!

وقد فهم ذلك سيف الدولة جيداً ، وكان موت المليكة بيلتذا التي تسيطرت على قلبه وامتلكت شواعره الضربة الاولى من الضربات التى كان ينتظرها ... وقد يكون تلاشى ومات من موت الحبيبة ؛ وهو الجبار الذي لم تستطع يد البشر الوصول اليه وسيموت من حزنه في حبه ومن بكائه في غرامه

وقد يكون الخلق عز وجل قد وجد انه اعطى كثيراً لسيف الدولة فاخذ يسحب عنه نعمه

نعم ، لقد اضاع الامير نجمه السعيد في موت المليكة الفتانة ولم يعدله من نصيب في العظمة والانتصار ، ورفع راية الاسلام فوق معابد الكفار

وجرت الاحتفالات بدفن الاميرة في حلب فكانت عظيمة

مهيبة وبعدان حنط العلماء والعرافون جثتها وعطروها ومددوها فوق فراش من الحرير الاحمر الموشى بالذهب والالماس ، واحاطوها بجواهرها ومصوغها بطريقة كان يخيل للناظر انها تستحم في نهر من الحجارة الكريمة

و كانت تتراآى في جمال الموت بملاحة مهيبة باهرة تبتسم للانهاية كأنها في حلم لذيذ ساحر

ومشى الموكب الذي كان يؤلف هكذا : مائة جارية وجارية لبسن البياض وتكللن بالزهور وحملن قارورات العطر والبخور ومن بعدهن الحرس ومن بعد هؤلاء القواد والوزراء ورجال الدولة ، ومن بعدهم اسراب المنتحبات وجماهير الدراويش ثم الوف من الناس . واخيراً وحده كأنه متسول فقير ، سيف الدولة

وهكذا ساروا بالمليكة لؤلؤة الصحراء الى مقرها الاخير

وكان النحاتون والفنانون قد اصطنعوا لها في خلال ثلاثة ايام وثلاث ليال فقط قبراً عظيما من المرمر والبرفير في الحديقة التي كانت تجلس بيلتذا اليها بين النرجس والسوسن والاقحوان

هنالك رقدت الى الابد بين جواهرها النادرة المثال وتحت ظلال الزيزفون والصفصاف على ضفة الجدول المترقرق المياه

ومر القواد والوزراء والجند وافراد الشعب امام القبر ينثرون فوق الازهار ... واخيراً تقدم الامير فجمدت عيناه وتصلبت اعصابه ونظر الى الجثة نظرة وضع فيها كل يأسه كأنه

جعلها رسول حزنه الى الخالق

واقفلت المدينة ابواب مغلقها حداداً وحظر على الاندية والملاهي والفنادق قبول الزوار والضيوف ولبست العذارى السواد وهجر الامير قصره وانزوى مع حاشيته في القلعة المخيفة وقد استولى عليه يأس مخيف خطف لون وجهه وبريق عينيه واضعف جسمه ، واصبح دون قوى ولا شهوات ولا لذات ولم تعد الحياة التي اغدقت عليه كل محاسنها سوى شيء يسير له مرارة الحنظل ، فكان يقضي يومه مستلقياً على ظهره ، تعباً ساهداً لايغمض جفنه المملوء من التذكارات فيقول بلسان القائل «ماهي قيمة الحياة اذا لم يرافقها نور ابتسامة شفتي الحبيبة »

وقد منع بابه عن الجميع لانه لم يكن يرضى ان يشغله الناس عن احزانه واشجانه وترك الاعمال والاهتمام بامور الدولة وكلف بها قرقولاه الحكيم ووزيره ابا تغلب

ولم يكن يسمح حتى لقواده الامراء بالدخول عليه ؛ فلا يهتم بشيء حتى ولا بجيوشه المرابطة على الحدود البيزنطية

وعبثاً كان وزراؤه يحاولون اطلاعه على الحالة .. فانه لم يكن يسمع لاحد

وقد كان يتكلم دوماً وحده بهذيان مستديم ومن تجاسر واقترب من ابوابه كان يسمعه دوماً يخاطب الحبيبة المائتة وهو ينتحب ويقول :

ـ ايها القبر كيف تستطيع ان تحبس بين ظلماتك المخيفة النور الساطع الخارج من جسم المليكة الفتانة ؟

بالله ايها القبر، قل لي ؟هل فنيت الى الابد محاسن الحبيبة؟

هل تلاشت ملاحتها التي كانت بهجة للناظرين ؟

كيف انساها، وقد شربت من الكوب الساحر الذي ملأته من لحاظها الفتانة ولا ازال في نشوة دائمة منه

يزورني في الليل طيف خداع ، يتيه حول فراشي فامد ذراعي لالتقط خيال الحبيبة ، واستيقظ وقد تلاشى ظلها السماوي المغري، فاملأ القصر انتحاباً

لقد فارق قلبي جسمي وعيناي لاتعرفان النوم

كنت روحي وسويداء قلبي يابيلتذا ، فكيف استطيع ان اعيش بعد ان تركتني

فسأبكي عليك على قدر ما تنتحب الحمائم ذات الاعناق السوداء ، وعلى قدر ما استطيع البكاء

ومضت الايام دون ان تأتي بالسلوى للامير، وقد فقد جماله الذي لم تقو عليه سابقاً المعارك والشموس وفقد شجاعته التي لم تنل منها بيزنطة العظيمة منالا ، وتجعدت جبهته الوضاحة واخترق خط من الحزن خده ووجهه حتى اتصل بشفتيه

ومع ذلك فالانباء على الحدود كانت تصل للقواد والوزراء سيئة مخيفة ، انما لم يكن يجسر احد ان يقلق حزن الامير وعزلته

المخيفة فيرددها على مسامعه

واخيراً عقد قرقولاه وابو تغلب مجلساً وقدشعرا ان الخطر اصبح مداهماً ومن اللازم اللازب اتخاذ الحيطة حالا والا اكتسح الروم البلاد• فقرر الوزيران ان يكلفا نجا حبيب الاميرونديه باقتحام بابه واعلامه بماجريات الحال

فاذعن نجا القائد الجيل لطلب الوزيرين وسار الى القلعة وقلبه مفعم بالحزن والخوف فالتقى بمبارك حافظ رأس الامير وجرب هذا ان يقنعه الا يتقدم لملاقاة مولاه ولكن نجا كان مزمعاً الا يرجع خائباً فقال لمبارك

لا بد لي من مقابلة الامير ولو اضعت رأسي• فقال مبارك

ادخل عليه اذن انما احذر من غضبه فهو لا يقف عند حد

ورفع نجا سجف الباب ودخل فوجد نفسه في قاعة عارية من الفرش حقيرة المنظر ورأى سيف الدولة ممدداً على فراشه يحمل رأسه بين يديه وقد تاهت انظاره في عالم غير هذا العالم فلم يشعر بدخول احد عليه.وتقدم نجا نحوه واخذ يده ليرفعها الى فمه فارتعش الامير عندئذ ووقف فجأة وقد لمعت عيناه ببريق الغضب وقال

ماذا يريدون مني ؟ ولماذا جئت الى هنا يا نجا

ونظر الى ما حوله وقال : اتركوني لا اريد ان ارى احداً .

يا اميري – قال نجا من الواجب ان احادثك، لان الخطر

مداهم والدولة على وشك ان تقع بين ايدي الاعداء

قال وماذا تهمني الدولة ؟؟؟

قال نجا : انما يا اميري هناك خطراً عظيما ايضاً على حياة اصدقائك وابناء رعيتك الذين لا منقذ لهم غيرك

ولم يضرب احد عبثاً على اوتار قلب الامير وهو الذي لاتهمه حياته فانه كان يهتم كثيراً لحياة غيره ، فقال

وما الخبر يا نجا . تكلم ؟

قال : يهددنا العدو من كل جانب ايها الامير وقد جيش البيزنطيون النصارى الفرق العديدة يقودها قائدهم الشهير نيكوفورس فو كاس ذلك الذي قهر اكريتة وداسها بقدميه

فنظر اليه الامير ورفع منكبيه مستخفاً وقال : اليس غير ذلك ؟ وهل يخاف الاسد عندما يحوم الثعلب حول عرينه

قال نجا : انما ياسيدي لقد اكتسح نيكوفورس كيليكيا وهو اليوم على ابواب الامانوس ويكون غداً في « ديبرقبو »

فامتقع وجه الامير وقال :

هل تقول الحق يا نجا فاذا كان الامر صحيحاً فالويل للمعتدي . هات حالا عبيد وفيروز وقواده الى هنا واعط الامر للجيش ليستعد ، وليناددي المنادون بالجهاد الديني المقدس

قال الامير هذا وانتصب كالجبار ورجعت الى وجهه امارات الشجاعة والبطولة ، ورأى نجا ان دلائل التعب والشقاء قد

زالت عن ملامحه

وطلب الامير اسلحته فلبس درعه وتمنطق بسيفه

وعند المساء جمع قواده في قاعة القلعة الكبرى وعقد معهم اجتماعاً طويلا . وكان نجا قد قال الحقيقة وكانت بيزنطة تفكر منذ زمن باكتساح سورية والانتقام من اميرها الذي أذلها وانتصر مراراً عليها

وكانت جيوش باسيليوس « لعنة الله عليه » قد اجتمعت في القيصرية وكابادوكية وعلى رأسها نيكوفورس فوكاس القائد المشهور واجتازت الحدود السورية فاكتسحت كليكيا بعد ان افنت حرس الامير في ممرات جبل طوروس ،وتوغلت في سهل البقاع الخصب مفتاح البلاد السورية ولم تستطع فرق الامير الضعيفة ان تقف امامها ، مع انها عنيت كثيراً في محاربتها حرب عصابات

ولم يكن احد قد استدرك بتصوراته ان البيزنطيين يستطيعون ان يسيروا بهذه السرعة المخيفة ولم يكن القرويون ينتظرون هذا الاكتساح العاجل لقراهم ودساكرهم فقد كان مسير البيزنطيين سريعاً لدرجة انهم اسروا الشاعر ابو فراس والي منبج فجأة وهو على مائدة طعامه

وقد ارتاع الاهلون لهذا الاكتساح القريب واخذوا يفرون امام الجيش الظافر نحو حلب الشهباء

ومع ان الامير كان قد اظهر نشاطاً وحماساً في اليوم الذي اخبره به نجا عن واقعة الحال، فانه عاد الى حزنه في اليوم الثاني وقد تسيطر اليأس على قلبه ثانية ومع ذلك فانه سعى جهده لاتخاذ طرق الدفاع من انه كان يستطيع ان يجيش جيوشاً جديدة ويحارب عدوه في البرية خارج المدينة

وصعد ابن نباتة بامر الامير الى اعالي المأذنة في الجامع الكبير ونادى بالجهاد المقدس فاسرع العمال والصناع والمزارعون والتجار واقفلوا دكاكينهم وحوانيتهم وقاموا الى ابواب المدينة يستعدون للحرب . وامتلأت القلوب حماساً عندما عرف الرجال ان اميرهم المحبوب يهجر عزلته ويسير للحرب المقدسة

٢٠

تحت اسوار حلب

لا يقبلون الجراح الا في صدورهم ولا يفتشون عن الهرب من الموت «كعب بن زهير»

وكانت الرسل يغطيها الغبار تصل من ساعة الى اخرى حاملة الرسائل المنبئة بوحشية العدو ومظالمه . وكانت جنود باسيليوس كلما تقدمت الى الامام تترك وراءها فراغاً مخيفاً هادمة المدن مخربة الدساكر ذابحة الاهلين قاطعة للاشجار . محرقة للمحصولات مدنسة المعابد والجوامع . جاعلة اياها

اسطبلات لخيولها بعد ان تحطم النقوش البديعة في المنابر المرصعة وقد ساد الرعب على الاهلين الذين كانوا يهربون امام العدو بقوافل حزينة تعسة تسير الى الامام ونواظرها الى الوراء • وسقطت المدن بعد المدن . والقلاع تلو القلاع واستسلم حصن سيس كيلاس بالرغم عن شجاعة رجاله الذين رمى بهم العدو دون اكل ولا شرب في الصحراء حيث ماتوا باجمعهم واصبحوا فريسة للغربان والثعالب وكان الاسرى من العرب في سيس قد حاولوا انقاذ نسائهم واخواتهم وامهاتهم من مخالب جنود بيزنطة فأمر نيكوفورس القائد الاكبر بذبح الاسرى عن بكرة ابيهم، وكان يعد المدن قبل دخوله اليها ان يعاملها بالحسنى. فاذا ما دخلها فظع بالنساء واسر الرجال وترك الارزاق والخيرات غنيمة باردة لرجاله

وقد تملك الرعب في القلوب كما تتملك النار في الهشيم • وكان الامير يأمل باحتياز الصحراء والكمن للبيزنطيين في ممرات الآمانوس انما واسفاه فقد ضاع بذلك لان البيزنطيين كانوا قد توغلوا في السهول السورية . ووقعت بين ايديهم مرعش ودلوك وعينتاب ومنبج ورعبان • ومع ذلك لم يستول اليأس على قلب الامير

وسار ذات صباح يحيط به افضل قواده واشجع فرسانه نحو الشمال ولكنه اضطر الى الوقوف في اعزاز على بعد بضعة اميال

من حلب حيث وجد نفسه امام قوات نيكوفورس العديدة . فلم يحاول ان يهاجمها ، لان بذلك مخاطرة قوية فرجع امامها ليدافع عن عاصمته وهو الذي لم يول مرة قبل ذلك اليوم ظهره لعدو وترك قائده نجا بعشرة الاف فارس يحمي مؤخرته وعاد لحلب على جناح السرعة

وعندما وصل لابواب المدينة حدق بها طويلاً واضعاً خطته وكانت حلب تنبسط امامه بيضاء كالثلج ، وقد وضعت قدميها على التلال الخضراء الخصبة والحدائق المعطرة حيث اعتلت القصور الحدائق الشاهقة ، وكان للمدينة اسوار ضخمة حفرت في اسفلها الخنادق الوسيعة ، فجرت فيها تحيط بها مياه نهر القويق بهدؤ ورهبة ولها تسعة ابواب محصنة

ودخل سيف الى حلب فنادى بالنفير العام لكل ذكر بلغ السادسة عشرة ووعد بدينار ذهبي لكل من اتبعه . وابتدأ بتحصين المدينة التي استولى على اهليها حماس كبير ، فامتلأت حصونها بالمحاربين وشوارعها بالفرسان الذين كانوا يسرعون على صهوات جيادهم حيث كانت تقضي الحاجة بسرعة البرق

ومضت الليلة الاخيرة في الاستعداد لليوم العصيب وفي الصباح رأى الحلبيون فرقاً من الفرسان تسير نحو المدينة بسرعة مدهشة ، وقد لمعت خوذاتهم النحاسية ودروعهم الفضية على اشعة الشمس . وكانت تلك الفرق فرسا

نيكوفورس برجاله فاجبرهم على الالتجاء الى حلب ، وسار وراءهم يعمل السيف بمؤخرتهم

وكانت الانباء تأتي سيئة مخيفة فقد كان نيكوفورس يسير على العاصمة السورية بعجلة فضاحة مدهشة وقد وقعت بيده كل القلاع من كلس الى الحاضرة الى بيزار الى بالس الى تارف الى سرمدا الى البرار الى المعرة ؛ الى حماه الى حمص الخ

وقد قيل للجميع انه يكفي لنيكوفورس ان يظهر امام حلب كيما تستسلم له

وعقد الامير مجلساً من قواده والجميع في حالة من الحماس لم يعرفوها قبل ذلك اليوم ، وقد عقدوا الخناصر على الانتصار او الموت وهم يعتقدون ان العدو انتصر في كل المواقع سيرجع خائباً امام المدينة البيضاء التي يحميها اميرهم الجبار

وقال لهم سيف الدولة : ايها الرفاق يجب ان يصاب نيكوفورس بالانتصارات التي احرزها ، وبالسرعة التي سار فيها فقد اسكرته خمرة الظفر واهمل حماية مؤخرته واقامة خط اتصال بين جيوشه وبلاده ، فمن اللازم ان يقع الرجل بالشرك الذي ننصبه له ، لهذا قررت ان انازله على ابواب المدينة ، فاسقيه امام ضالته المنشودة كأس الحمام ، فغداً يسير نجا على رأس افضل فرقنا نحو الشمال ليقطع على البيزنطيين خط الرجعة وانا انتظر نيكوفورس على ضفة النهر ، وتكون قيادة المدينة

لفيروز وقيادة القلعة لعبيد ؛ واما نحن فنهاجم عند ظهور البيزنطيين في الجبهة واما ندجا فيأتيهم من المؤخرة وهكذا نحملهم بين نارين فيضطرون الى التسليم

وكانت هذه هي الخطة السهلة الوحيدة الموصول الى انقاذ المدينة ، فصادق عليها القواد بهتاف الفرح وقام كل منهم الى فرقته وسار ندجا في الليل والمطر يهطل مدراراً على رأس رجاله نحو الشمال ، وقام سيف بفرقه الى ضفة النهر ؛ تاركاً فيروز وعبيد يكملان تحصين المدينة وقلعتها

ومضى اليوم التالي بهدوء تام لم يعرف فيه الامير شيئاً من اخبار نيكوفورس وكان العرب على اتم الاستعداد لملاقاة العدو انما الله يعلم ما لا يعلمه احد

وقام سيف الدولة يطوف الجوار فاذا به يلتقي بشراذم من البدو تائهين ضالين يسيرون بسرعة نحو المدينة فاستطلعهم الخبر فقالوا له ان نيكوفورس يطاردهم وقد اصبح على بضعة اميال من الشهباء ، فقام الامير حالا الى المدينة وهنالك نقل كنوزه الى القلعة ورجع الى معسكره ينتظر العدو وهو على ثقة من ان ندجا قد قام بالمهمة العظمى التي انتدبه اليها في الشمال ؛ مع انه لم يصله خبر منه منذ رحل عن حلب

وكان امل العرب بالفوز كبيراً لدرجة انهم استقبلوا نيكوفورس عندما ظهر عليهم على رأس جيوشه الجرارة بهتاف

الظفر والانتصار . وجربت فرق الطورسيين البيزنطية ان تقطع النهر سباحة ولكنها رجعت القهقرى امام السهام العربية التي اغرقت اكثر رجالها . فاصبح الامير عندئذ على ثقة من النصر النهائي وقد اعتقد ان ندجا سيهاجم مؤخرة العدو عند الفجر ويقوم هو بهجومه في الجبهة في الوقت نفسه

والتفت اليه القائد بصرى وقال له : سيكون الغد ايها الامير يوماً عظيما للمؤمنين

واسفاه ! يا بصرى الشجاع ، فالغد ليس لك وسيكون فيه يومك الاخير . وفي الليل مدّ نيكوفوروس جسراً على النهر في جهة مجهولة فنقل معظم فرسانه الى الضفة الثانية وعندطلوع الشمس هاجم سيف الدولة واحاط به من جانبيه ، فجرت معركة هائلة اظهر فيها الامير بطولة عظمى فاوقع الرعب في قلوب البيزنطيين وقتل منهم الكثير ، ولم يكن رجاله اقل بطولة منه فحاربوا كاسود الغاب

ولكن ... واسفاه ... ان البزنطيين كانوا قد احاطوا الفرق العربية احاطة السوار بالمعصم وقطعوا عنها جميع المواصلات فتملك الشقاق في صفوفها ، وحار الامير في ندجا الذي لم يسمع عنه خبراً وقال بنفسه ان هناك امراً غير عادي استوجب ذلك السكوت . وشعر العرب بالخطر التام لذي يستهدفون اليه فاتجهوا نحو باب الجهود احد ابواب المدينة المتسع

ففتحوا لهم مدخلًا فيه بقوة الرماح وولجوه طالبين النجاة ضمن الشهباء

ورأى الامير نفسه منفرداً بين القليل من قواده وقد تركه الجميع كما جرى له سابقاً في ممرات اندراسوس ولم يبق له من امل في غير جواده اجمل خيول الصحراء فنظر اليه وقال له :

« قتال يا حصاني الجميل ... لقد انقذني براق سابقاً وانت لا تقل عنه نبالة ، ولم يبق لي من باب فرج الا على صهوتك »

فصهل قتال صهيلًا عالياً كأنه ادرك ما قاله له سيده واشار سيف الدولة الى رفاقه الذين اجتمعوا حوله وسار امامهم فاتحاً له طريقاً بين البيزنطيين ضارباً يمنة ويساراً وملقياً الرعب بين صفوفهم ، وقد تبعه بقايا قواده ، فتمكنوا من اجتياز الفرق البيزنطية ورأوا انفسهم بعد حين في الصحراء احراراً بالرغم ان فرسان البيزنطيين كانوا قدساقوا خيولهم في اثرهم ولكن ما تفعل خيول بيزنطة امام افراس نجد وجيادها المطهمة

وعند المساء دخل الامير الى قنسرين الواقعة على بحيرة المتنخ المالحة ، وكانت المدينة خالية خاوية وقد هجرها اهلوها وتركوها قاعاً صفصفاً

وهكذا رأى سيف نفسه وهو امير الكرم والضيافة طريداً شريداً لايعرف اين يضع رأسه فسقطت دموع حارة على خديه والقى كتفه على حجر الطريق واخذ يفكر ببصرى وابي

قغلب والصيادي وغيرهم من قواده الابطال الذين لاقوا حتفهم في ذلك اليوم ؛ وفكر ايضاً بابي فراس ابن عمه وبشعرائه الجبناء الذين فروا امام العدو . وفكر اكثر من كل احد بندجا

ندجا ، نديمه وصديقه الذي احبه كأبنه ؛ والذي خانه خيانة فظيعة . ونظر الى رفاقه وقال لهم : لم يبق لي غيركم من كل هؤلاء الابطال فلقد قتلت الساعات السوداء كل السعادات ولم تبق منها شيئاً

فقال رشيد : لاتزال آمالنا كبيرة ايها الامير فحلب لم تسقط بعد ولن تسقط

فزفر الامير زفرة مرة وقال : كلا ! ايها الرفاق ، فلم يبق لنا من امل . ألم اقل لكم اننا خسرنا بموت بياتذا نجمنا السعيد واننا لن ننتصر بعد ذلك

فاشفق الجميع على ذلك الامير الجميل التعس وجاؤا اليه يقبلون يديه ؛ وشعر سيف الدولة بان العالم باجمعه يتركه فاستولى عليه نعاس كأنه من الرصاص ونام نوماً عميقاً ، وكان امناؤه يسهرون عليه والصحراء امامه تنتحب على سيدها

وندجا الخائن سائر الى الشمال نحو انطاكية البيزنطية

٢١

سقوط حلب

تنتحب بنات العرب على برودهن وعلى ضفائر شعورهن
باكيات صاخبات « شاعر مجهول »

واما ما جرى في حلب فهكذا .. تقدم اليها نيكوفورس بنفسه على رأس رجاله بعد ان عرف بهرب اميرها ولكنه كان متردداً في الدخول اليها بدءاً وهو يخشى ان يرجع الامير فيهاجمه في مؤخرته لانه ــ اي نيكوفورس ــ مع شجاعته ودهائه كان يخاف سيف الدولة حتى في انكساره

وامر بحصار المدينة فقط وفي اثناء اليومين الاولين لذلك لم يقم بعمل هام غير حفر الخنادق وضرب المضارب لجنده ... انما في اليوم الثالث تقدم اليه وفد من اهل الشهباء يطلب مواجهته

ولما مثل الوفد للمقابلة يحيط به الحرس والفرسان وجد القائد البيزنطي جالساً على كرسي من الاطلس المزركش بالذهب ومن حوله قواده وعظماء جيشه في البستهم البراقة المرصعة .

وكان نيكوفورس قصير القامة ضخم الرأس ، له عينان صغيرتان لامعتان ولحية طويلة مكتظة الشعر ، وبطن كبير وقدمان غريبا التراكيب.

وكان دميم المنظر ، وقد اشمئز الحلبيون لمرآه واستنزلوا

بصرهم لعنات الله ورسوله عليه ، ولكنهم اضطروا — وهي سنة المغلوب — ان يعرضوا عليه مطاليبهم ، وهو لا يكاد يسمع لهم فأكدوا له ان أميرهم ترك حلب وانهم يريدون مفاوضته بالتسليم فتردد نيكوفورس في الجواب واخذ يسألهم عن عدد رجال حامية المدينة والقلاع المنصوبة فيها للدفاع ، فاعلمه اعضاء الوفد بالحقيقة دون مواربة ظناً منهم انهم اذا ما اصدقوه الخبر انقذوا مدينتهم من غضبه وكان هنالك كاتب يسطر اقوالهم

وبعد هذا الاستجواب الطويل المحكم تظاهر القائد البيزنطي بان المشايخ اعضاء الوفد يخدعونه في اجوبتهم فغضب وزبجر وطردهم من حضرته ، وامر بالاستعداد للهجوم على المدينة واكتساحها

ورجع الوفد الى حلب والنار تتأكل اكبدة اعضائه ، وفي ودهم المدافعة حتى الرمق الاخير ولكن اميرهم لم يكن في عاصمته كيما يقود جيوشهم للظفر كما فعل قبل ذلك كثيراً ، وكيما يوفق بين جميع الزعماء الذين اخذوا ينشقون على بعضهم بعضاً ويفتش كل منهم عن طريقة تضمن له راحته وحياته ، وقد انقسموا احزاباً فمنهم من قال بالدفاع حتى الموت وعلى رأس هؤلاء فيروز وعبيد ومنهم من قال بالاستسلام دون قيد ولا شرط ؛ لان المدينة لابد لها من السقوط ولا يورث الدفاع غير شدة حقد وغضب البيزنطيين الذين لا بد لهم اذا قاومتهم

المدينة من نهبها وسلبها واحراقها

انما غلبت اخيراً روح البطولة على الجميع وقررت المدينة بكليتها الدفاع والوقوف بوجه الطامع الكافر

وكان العدو قد قرر الهجوم من الجهات الثلاث الجنوب الشرق والغرب تاركاً الجبهة الشمالية حيث قامت القلعة لان المهاجمة من هذه الجهة لا تأتي بفائدة

وابتدأت الآلات الحربية عند الصباح ترشق بصخورها وحديدها الاسوار، بقوة هائلة محاولة فتح الثغر فيها ولكن الاسوار ظلت ثابتة لا تتزعزع يدافع عنها الحلبيون المستبسلون حتى الموت

انما استطاع البيزنطيون ان يفتحوا باب انطاكية في السور الجنوبي الذي دهس مئات المدافعين عنه عند سقوطه ودخل رجال نيكوفورس بصفوف محتشدة المدينة البيضاء وهم ينادون بالظفر، ولكنهم ما كادوا يتوسطون الشوارع حتى امطرهم الحلبيون وابلاً من السهام والحجارة ودفقوا عليهم الزيت الساخن فاضطروا الى الانسحاب بعد ان تركوا وراءهم اكواماً من الجثث

وظلت ابواب الاسوار الاخرى واقفة حاجزاً دون رجال بيزنطة المخيفين . وهكذا سقط هجوم المكتسحين الاول بعد ان كلفهم الوف الرجال . وفي اليوم الثاني ادرك نيكوفورس ان

لا بد من محاصرة المدينة مدة طويلة ، لا سيما وان الحلبيين عادوا في الليل فاقاموا الحواجز العظيمة على باب انطاكية وحصنوه تحصيناً متيناً

ورأى القائد البيزنطي ان موقفه غير طبيعي وهو بعيد عن حدود بلاده ومستهدف لخطر رجوع الامير على رأس جيش جديد ، فوجد من الحكمة ان يجمع جيشه وراء جبل غوزان ويرتجع بنظام

وبعد مارأى الحلبيون من اعالي الاسوار جيش بيزنطة يسير نحو الشمال تاركاً وراءه مدينتهم ملأوا الارض والسماء بهتافات الظفر والفرح . فبين كان اميرهم المفدى الجميل بين الرجال كيما يهجم على ظهر جواده « قتال » فيعمل في العدو سيفه ويثأر منه وينتقم من الخائنين الذين باعوه لقائد البيزنطيين الزنيم ... ولكن الله يعرف مالايعرفه العبيد وجرت الامور عكس ذلك . وزال الخطر ونجت حلب الشهباء اذ ليومين فقط

وعندئذ ترك المحاربون الاسوار وهم سكارى من خمرة الفرح وتفرقوا في المدينة يطلبون اللذة والغرام ، ورأى الشعب نفسه سيداً في حلب فازدادت اطماعه وكثرت شهواته فهاجم الاسواق والخانات واخذ ينهب ويسرق ويسبي في حوانيت الاغنياء وقصورهم وابتدأت عندئذ اعياد فاسقة مخيفة ، كانت ضحاياها العذارى المخدرات والنساء الجميلات اللواتي دفعن

لابناء الشعب من اجسادهن الجميلة جزاء دفاعهم عنهن

وقدجرب المشايخ والتجار والامناء عبثاً تهدئة الحال وايقاف المذابح ودفعوا بدورهم من دمائهم ثمن تداخلهم هذا

وابتدأت حرب في الشوارع اشد واغشم من حرب العدو واعتلت في سماء حلب المدينة النبيلة اصوات الاستغاثة والنحيب وامتلأت البيوت من الجرائم والآثام

وكان العدو البيزنطي لايزال ينتظر لمّ شعثه بالقرب من المدينة مولياً لها ظهره فلما علم بالفوضى السائدة ادار بوجهه نحو الشهباء وسار اليها فدخلها دون مقاومة ؛ ورأى الحلبيون فجأة اعدائهم يدخلون عليهم من كل جانب ويعملون في رقابهم السيف

وهكذا في ساعة الانتصار سقطت عاصمة سيف الدولة

وكانت مذبحة لم يعرفها احد قبل ذلك التاريخ وبعده فكنت ترى الاجداث للنساء والاطفال والعجز متراكمة في الطرقات وهي اكوام من اللحوم الممزقة ، وابتدأ السلب والنهب والقتل ولم يترك البيزنطيون جهة او بيتاً الا دخلوه وتركوه بعد حين قاعاً صفصفاً ، فجرت اسواق من الدم البشري في الشوارع جاعلة اياها حمراء كالارجوان ؛ وتلطخت جدران المدينة بدم الابرياء

ولم يفكر الاهلون بالدفاع دقيقة واحدة بل كانوا يهربون امام العدو هنا فاذا بهم امام العدو هنالك ، فيسقطون تحت

ضرباته صرعى لايعون

وهدأت الحال اخيراً بعد ثلاثة ايام ذاقت فيها حلب من صنوف التقتيل والتعذيب ما لم تذقه مدينة قبلها ولم تقف الاعمال الفظيعة المخيفة الا عقيب ان تعبت ايدي السفلحين من القتل ، وشبعت شهواتهم من اللذات . واخذ رجال نيكفورس ساعتئذ باعداد القوافل العديدة لنقل المنهوبات من جواهر وحرائر وطنافس وسجادات وكنوز الى بلادهم .

وقد كانت المدينة غنية لدرجة انها بعد ان اشبعت اطماع البيزنطيين بقى فيها المال الكثير والخير الغزير ، مما لم يستطع هؤلاء حمله ، فجاؤا به الى الساحة العامة واحرقوه باجمعه كيما لا يتركوا للعرب منه شيئاً

ومرت عندئذ شراذم من البيزنطيين السكارى ، فرأوا زيادة للذتهم ووحشيتهم ـ ان يأتوا بالبنات فيحرقونهن فوق النار ويقدمون قرباناً على مذبح جرائمهم

وكان عبيد وبقية من رجال الامير ينظرون لهذا المشهد بحزن ورهبة من اعلى اسوار القلعة التي التجأوا اليها ، ورأوا ايضاً قصر الحلبة العظيم يسقط طعما للنار ، والمساجد والمعابد تنقلب اسطبلات للحيوانات ، فبكوا على المدينة الشهباء التي جعلها العدو خراباً

وكانت في اقبية حلب مستودعات عظيمة لزيت الزيتون

فعرف بها ايضاً البيزنطيون وداروا عليها مياه النهر فتدفق في الشوارع بثقله وهدوئه ودخل الى المنازل وجعل الساحات العامة بحيرات صعبة الاجتياز

ولم يبق نيكوفورس ورجاله الاعلى الفتيان لظرفاء والنساء الجميلات ليسيروا بركابهم اسرى الى بيزنطة حيث يؤدون من اجسادهم الفدية

وظل عبيد ورجاله وهم سور الشرف الأخير للبلاد السورية في القلعة حيث كانت لا تزال تخفق راية الامير على اطلال ورسوم الشهباء البالية

٢٢

المدينة المكتسحة

« كان يعيش اسياد عظام شرف وعز وافتخار في القصور الباذخة وبين السراري الساحرات . . . واسفاه من يدري اليوم ما اصاب اولئك الإسياد وما حل بهم » الف ليلة وليلة »

وقضى فرسان بيزنطة لياليهم بعد ذلك بالانبساط والافراح يتلذذون بخيرات المدينة المكتسحة المغلوبة وقد وضعوا ايديهم على الكنوز النادرة المثال والاموال التي لاتعد ولا تحصى وقد وجدوا عتبة قصر الاميروفي اسطبلاته فقط مائة الف دينار من ذهب وخمسة عشر الف بغلا والفي جمل وثمانماية حصاناً

مع عددها ومعدانها وثلاثمائة حملا من الجوائز والاواني الذهبية والفضية ومائة حملا من الاسلحة والوف الوف من اقواس السهام المزركشة والدروع اللماعة والرماح الطويلة وكثيراً من التحف والمكاسب فتقاسموها باجمعها ، وكانت حصة كل منهم تقدر بالوف الدنانير

وعندما استأمن البيزنطيون على المنهوبات والمكاسب والاسرى رأوا الا يستهدفوا لخطر جديد ببقائهم في حلب وظلت القلعة سليمة بما فيها من الفرسان الديلميين والهاشميين الذين يقودهم عيد البطل الصنديد ، فكانت هكذا كسيف حاد مسلط فوق رؤوس نيكوفورس ورجاله

وجاءت ايضاً اخبار من الصحراء تنبأ نيكوفورس بتجمعات فلول فرق الامير فخشي البيزنطي ان يفاجاه سيف الدولة فقرر الرحيل . في حين ان الخطر لم يكن قريباً كما توهم لان رجال القلعة لم يظلوا يدافعون عنها الا لشدة مراسهم وتفانيهم وقد استولى عليهم الجوع والعطش والحاجة ، فضلا عن ان جدران القلعة لم تكن متينة ولا تستطيع الوقوف طويلا امام عدو شديد يهاجمها ، وكان عيد ورجاله قد اضطروا ان يقيموا في جهات كثيرة منها اسواراً من الرمال والحصى والوحول وكثيراً ما كان ينسل بعضهم في الليل تحت خطر الموت لكي يأتي رفقائه ببعض القوت

وعرف نيكوفورس بموقف المدافعين العرب المزيل وذلك في الساعة التي قرر فيها الرحيل ، فعزم ان يهاجم القلعة قبل ان يترك حلب ، ولكن رسله في الصحراء جاؤه ساعتئذ بخبر تقدم جيش المعونة الذي ارسلته دمشق لمساعدة سيف الدولة تحت قيادة اميرها فعدل عن عزمه وامر حالا بالجلاء عن المدينة الخربة ولكن احد النبلاء الفتيان من قواده اقترب منه بكل جرأة وقال

انت تهرب اليوم قبل ان تتوج رأسك باكليل الظفر التام فاذا لم تأخذ القلعة تكون كأنك لم تفعل شيئاً فاكمل انتصاراتك وضع يدك على آخر ملجأ لآخر رجال الامير

فهز نيكوفورس منكبيه عند استماعه هذا الكلام ولكن القائد الفتى تابع حديثه بقوله وهو يشير للقلعة الحمراء

انت تختشى بعض الرجال وبعض الحجارة... فاغضب هذا الكلام نيكوفورس ولكنه لم يتحرك ! فاستل عندئذ القائد الصغير سيفه ونادى رجاله وصعد الى القلعة بطريقها الصغير الوحيد الضيق وهاجمها كالمجنون ولكنه اضطر الى الارتداد عنها بعد ان امطره عبيد ورجاله سهماً وحجارة واصابت تيودور القائد قطعة صخر فدهسته تحتها وفر جنوده امام الديالمين الذين خرجوا يطاردونهم وجاؤا الى نيكوفورس في المدينة يقصون عليه خبر اندحارهم فارسل هذا عندئذ مندوبين يفاوضون عبيد بالتسليم فقبل هذا بالشروط ولكن القائد

البيزنطي لايرحم ولا يشفق عندما يضع يده على عدوه فجاء بحامية القلعة التي استسلمت اليه واثقة من وعوده بالافراج عنها الى اسفل اسوار القلعة وهناك امر رجاله بالركوب واعمل سيف جنوده في رؤوسهم وعددهم الف ومائتا فارس ؛ تاركاً جثث هؤلاء الابطال فريسة للكلاب والثعالب والغربان التي كانت تحوم دوماً فوق المدينة منذ دخلها البيزنطيون

ورأى نيكوفورس عندما بلغه خبر اتصال فلول جيوش الامير سيف بجيوش عامل دمشق ان يجلو تماماً عن حلب الشهباء . فتركها ذات صباح بعد ان قال للاحياء القلائل الذين ابقاهم فيها من اهاليها انه سيأتي في السنة المقبلة لجباية المكوس ووضع يده على محصولات البلاد التي يعدها بعد انتصاره ملكاً له

ودخل في اليوم الثاني الامير سيف يرافقه حليفه الامير سليم بن صلاح الى مدينته المكتسحة ، فكنت تكاد لاتعرفه لما بدا من الشقاء والحزن في ملامحه السيلة ؛ وقد تجعد وجهه وظهرت عليه علائم الضعف والهزال فكان يخيل لناظره ان الدهر اخنى عليه بكلكله فاحنى رأسه وظهره تحت ذلك الحمل

وعندما رأى ما حل بحلب البيضاء ومر امام جامع سليمان الذي جعله الكفار اسطبلا لخيولهم ونظر الى قصوره التي اصبحت قاعاً صفصفاً شعر ان قلبه يهرب منه فاصفر لونه وسقطت على خديه دموع مظلمة مخيفة جارحة وقال :

كل شيء تركني يا رباه حتى رحمتك ، فانت قاس في غضبك بقدر ما انت كريم في حسناتك ، فلتكن ارادتك ايها الرحمن الرحيم

وتراكض عبيد الذي نجا باعجوبة ورجاله من القواد الابطال الذين ظلوا بالقلعة حتى الساعة الاخيرة الى امام الامير يقبلون طرف ردائه والارض التي تطأها قدماه

واخذ سيف الدولة صديقه الصادق بين ذراعيه وقال له :

ـ انت وحدك بقيت اميناً على عهدي من بين جميع الذين اغدقت عليهم نعمي

قال عبيد : يا اميري وسيدي ومولاي ... ما اهمية هذه الحجارة السوداء في المدينة والكنوز التي حملها البيزنطيون ؟ فاننا سوف نشيد مدينة جديدة فوق هذه الانقاض ونسير ثانية لامتلاك البلدان ؟ والذين استشهدوا من المؤمنين في سبيل الله ورسوله واميرهم هم الان في الجنة يتمتعون برأى الخالق وبجمالات الحوريات بعد ان خلدوا اسمائهم هنا في صفحة البطولة

قال عبيد هذا ورفع يد الامير الى شفتيه يقبلها حاسر الرأس باكياً ، فهز سيف بكل تؤدة واشار بيده نحو الراية التي كانت لاتزال تخفق فوق القلعة وقال :

الفضل لك يا عبيد في ان الشرف لايزال سالماً فكن مباركاً في سلالتك التي يجب عليها ان تحافظ بكل نبالة على المحبة التي

اهبك اياها الان ، فتلك الراية التي عرفت كيف تحافظ عليها منذ اليوم ملكاً لك ولابنائك من بعدك ، فعساها تحمل بين ثناياها مدى الدهر النصر والامانة

فتأثر الحضور من كلام الامير وبكى الامير سليم عامله في دمشق غزيراً وتقدم القواد نحو عبيد يقبلونه ويهنئونه بالشرف الاثيل الذي لم ينله احد من قبله ، وهتف الجميع عالياً :

ليعش سيف الدولة

فهز الامير رأسه وارتعش كأنه عرف تماماً ان حسنات الخالق قد تركته الى الابد

وجاء الليل بهدوئه حاملا ستار الحداد والحزن فوق هذه الخرائب المندثرة ، فابتعد الامير عن رجاله وسار بين الطلول البالية يشبه شبح التعاسة التائه الطريد

٢٣

ندجا الخائن

عندما يحولك القدر المحتوم لا تستطيع بعد ذلك ان تمد على طريقك السوداء الصديق الامين « الف ليلة وليلة »

استقبل الامير المصائب برحابة صدر ورضي بخيانة قواده وتعاسته وهو يعرف انه من العبث ان ينتحب ويشكو قدره المحتوم فاحنى رأسه أمام ما كتب له كما يفعل المؤمن الحقيقي

امام ارادة الله

ورآه الناس في اليوم الثاني يسير في مدينته الخربة مرتدياً الاطلس والحرير ومن حوله موكب كبير فخم

وراح في المدينة يرقب اعمال التعمير حاملا لكل من رعاياه كلمة تشجيع وابتسامة عطف . وألف القوافل الجديدة تجوب البلاد وارسل الى عماله يطلب منهم الارزاق والالبسة والحاجات الضرورية ، ولم يمض الا القليل حتى عادت الحياة لحلب الشهباء وامتلأت مخازنها من الاقمشة والحاجيات . وارسلت مدن كثيرة للعاصمة الاعانات من مال ومواد اولية . انما واسفاه ... فان الكثيرين كانوا استشهدوا في المواقع ولم تبق في المدينة يد عاملة كافية لتشييدها وارجاعها الى عزها . وكيما يجعل الامير عاصمته آهلة بالسكان اضطر ان يأتي اليها باهل قنسرين وغيرها

وكان الاهلون في كل يوم يرون الكثيرين من المؤمنين الآتين من اطراف البلاد يتقدمون اليه رافعين رايته وطالبين الانضمام تحت لوائه والسكنى في مدينته والاطاعة له اعتقاداً بهم انه سياج الاسلام وحامي ذماره

واصبحت حلب هكذا محجة المؤمنين من جميع اطراف المعمور فجاءها الناس من خراسان والهندستان وبلاد الافغان يحملون للامير قلوبهم المفعمة به اعجاباً وسيوفهم الصقيلة المحدودبة اللماعة وايمانهم الصحيح بالاسلام الذي لا يتزعزع

ورويداً رويداً رجع النشاط الى القلوب اليائسة وارتفعت فوق الخرائب القصور الفخمة وشيدت الاسوار الضخمة واصلحت حال الابواب الشاهقة وحصنت القلعة ورمم جامع سليمان العظيم الذي كان العدو جعله اسطبلًا للخيل

ودحر رجال الامير على الحدود عصابات البيزنطيين ومشى عامل الامير حاكم طرسوس رزق النسيمي على رأس فرقه على البيزنطيين في كليكيا. وهكذا عبيدسار على رأس الطرسوسيين والديلميين الى ملابيا حيث قهر عصابات الروم واحرق مدنهم ونهب اموالهم

ورجعت الامال للامير وتجددت سطوته ، واخذ يستعد سراً ليوم الاخذ بالثأر . ومع ذلك ما زال قلب سيف يدمى ... فخيانة قائده ندجا التي كانت السبب لكل هذه المصائب بقيت دون قصاص وظل الخائن يحارب الامير ضمن اراضيه ، واقفاً هكذا حاجزاً دون تقدم الجيوش . فشعر سيف ان جراحه القلبية لا شفاء لها بعد ذلك وقد هدت حيله وقوست ظهره

ومشى يوماً على رأس فرقه القوية نحو الشمال ولكنه اضطر ان يترك القيادة في اثناء الطريق وذلك عندما شعر بخفقان قلبه واصفرار وجهه حتى كاد يغمى عليه ، فاضطر قواده ان يرجعوا به الى حلب محمولاً على الاكتاف وبينما هو ممدد ووجهه نحو السماء رأى نجمه الساطع يسقط ورويداً رويداً في الشفق طالباً

وداواه النجاشي الحلبي العراف الشهير فأقعده عن العمل ، ولكنه كان يغتنم في اكثر الاحيان غياب عرافه فيمتطي جواده ويسير في الصحراء وحده مجيبا نداء خفياً في الافق الذهبي

وبالرغم عن كل التوسلات والنصائح ركب ذات يوم على رأس فرقه وذهب بنفسه لمقاتلة قائده الخائن ندجا ، وكانت قد وصلت اخبار سارة عن اعمال عبيد المنتصر في الشمال . وكان قد اكتسح كليكيا وطهر الحدود من البيزنطيين ولم يبق من عدو الا ندجا العائث فساداً في داخلية البلاد

وذلك لان هذا الخائن عندما رأى سيده منكسراً فريداً طلب المعالي لذاته وسولت له اطماعه ان يقتطع في اراضي الامير مملكة لنفسه وقد نسي ان الضب المخيف لا يمكنه ان يقطع له ثوباً من الاسد . فقطع الفرات واكتسح بلاد حران الغنية فنهبها وامتلك اموالها ، وبعد ان ملء صناديقه ذهباً وضع لنفسه خطة جبارة جسورة فانه قطع بسرعة هائلة بلاد ديار بكر ومشى على ميافارقين حيث النجل البكر للامير ابو المعالي حاكماً

وكان هذا الامير حديث السن جداً واحاط به افراد عائلته من كل جانب ، فان سيف الدولة كان قد انتقى ميافارقين مقراً لذوي قرباه واعتزم ندجا ان يأخذ الامير الصغير اسيراً فيجعله

وهينة بين يديه يحتكم فيه بسيف الدولة فيطلب منه ما يريده

ولكن في ميافارقين كانت ام ابي المعالي تسهر على ولدها وهي امرأة ذات قلب كبير وبصيرة ممتازة

وعندما شعرت باقتراب ندجا ورجاله اقفلت ابواب المدينة واعدت عدة الدفاع ، فاضطر الخائن ان يعود الى حيث اتى لما رأى تحصين المدينة وكثرة رجال حاميتها

ولكنه لم ييأس من امتلاك البلدان فاكتسح هلياط ومانكرد وجند رجالهما ورجع الى محاصرة ميافارقين حيث وقف امام الاسوار وسط رجاله واهان بكلام قذر سيدة المدينة امرأة سيف الدولة التي كانت تدافع كاكبر القواد عن ولدها وعاصمته .

وسمع بمرض الامير سيف وان داءه لا يسمح له بمطاردته وعرف ان عبيد الله البطل متوغل في الشمال لاحقاً بالبيزنطيين وعرف ايضاً بان الامير سيف يبكي وهو طريح الفراش موت شقيقته السعداء التي كانت عزيزة عليه جدا وقد ارسلت له مائة الف دينار لتعمير مدينته ، فكثرت من جراء ذلك آماله بالانتصار وافتخر امام رجاله بانه سيربط سيف الدولة بركابه ويخلفه في ملكه

وكان سيف قد نادى بخيانة ندجا العظمى وطلب من عماله في كل البلدان محاربته ، فلبى هؤلاء الطلب وشعر ندجا فجأة

بانه محاط من كل جانب بالاعداء ، واقفلت هيلاط المدينة التي خبأ بين قلاعها كوزه ابوابها بوجهه ولم يمض غير القليل حتى تركه عساكره الذين لم يكن قادراً على دفع اجورهم فاضطر ان يترك حصار ميافارقين ويلجأ الى حصن « التسليات » واعتقد انه بالتجائه اليه يصبح بعيداً عن المولى الذي خانه ، ولكنه في ذات صباح رأى بدهشة ورعشة فرقاً عديدة تطل على القلعة فصعد الى احد الابراج ومن هنالك رأى الامير سيف الدولة على رأس رجاله مرتديا برنسه الابيض الموشى بالذهب وعمامته المزركشة بالحجارة الكريمة وقد بانت على ملامحه امارات النبل والشرف التي زادتها الخطوب والمصائب جلالا

ورأى الامير قائده ندجا في اعالي البرج فتقدم وحده الى اسفل الجدار ونظر الى قائده الخائن بعين مظلمة وقال لهبلهجة عطوفة

يا بني ندجا اذكر القدر المحتوم ، فقد كنت عندي اوضع رقيق وبما انك كنت شجاعاً وبما انني اعتقدت انك مخلص اعطيتك المال والشرف وجعلتك من كبار قوادي ، وبدلا من ان تحفظ جميلي خنتني وفتحت امامي بيديك ابواب الشقاء

وكانت الجموع قد اقتربت تسمع بكل تأثر خطاب الامير الذي تابع كلامه بقوله: اكمل الآن عملك ، وخذ مني الحياة فها انني على مقربة من سهامك وتستطيع بسهم منك ان ترسلني الى العالم الآخر ، وقد صعدت بيلتذا مليكة حياتي الى السماء

واصبحت مدينتي الشهباء بعد خيانتك قاعاً صفصفاً ومات من جراء اعمالك احبابي واصدقائي وهجرني شعرائي عصافير الفضاء ولم يبق امامي غيرك ايها الخائن الذي احببته كثيراً ، فلم اعد اطيق الحياة ايها الرجل فاكمل ما بدأت به ، لم يستطع عدو واحد من الوف الوف الاعداء ان يختطف روح سيف الدولة فقد يكون مكتوباً انك انت اعز الناس اليه تخطفها فاضرب يا ندجا — يا بني

قال سيف هذا الكلام وفتح صدره بعد ان رمي جانباً ببرنسه وقميصه المدرعة

وكان منظره هكذا عظيما وجليلاً في هدوئه التام وعذوبته الكاملة وكرمه في مواقف السؤ وحنوه في غضبه

وحينئذ احس ندجا بان قلبه — حيث لم تمت كل عاطفة — يشعر بالندم ، فعرف نذالته وعندما سمع خطاب سيده اصفر ورآه الناس يحني رأسه بخضوع وينادي مولاه من اعلي الحصن بقوله

انا عبدك يا سيدي ومولاي فخذ حياتي اذا كانت تشفي جراحك . قال هذا ونزل الى المدينة ففتح بابها وخرج الى معسكر سيف الدولة ووقف بين يدي الامير الذي كان ولا يزال ممتطياً جواده « قتال » ورمى بسلاحه عند قدميه وعفر وجهه بالتراب

فابتسم سيف الدولة وشعر بان الراحة دخلت الى قلبه عندما

رأى ندم قائده واسفه فقال له : ارفع جبينك ياولدي فقد غفرت لك
وادار بانظاره نحو قواده الذين كانوا ينظرون الى ندجا
نظرة غيظ وحقد وقال لهم : لا يجب ان يذكر احدكم بعد
الآن ما اطرده في هذه الساعة من فكري ، فندجا لم يخن
ونظر الى قائده وقال له : خذ مكانك بين القواد يا بني وفي قلبي
ايضاً ، كأنك عائد من انتصار عظيم

فانت اليوم انتصرت بندمك على قدرك المحتوم السي

آه ... كم كان عظيما الامير بكبره وبنبله فمن اين للاسلام
اليوم برجل له اخلاقه وشرف عواطفه

ومن اين للاسلام روح سيف الدولة التي ماتت فتية لكثرة
ما فيها من الجمال

٢٤

لا كنوز لي غير اصدقائي «سيف الدولة»

وهكذا بعد ان عامل الامير بالرحمة والرأفة ندجا ورجاله
الخونة بدأ الحرب مع بيزنطة واستطاع رويداً رويداً ان يعمر
بلاده المخربة . وساد الامن على الحدود ولكن مجاعة كبيرة
ضربت في عرض البلاد وطولها فان جيوش نيكوفورس عند
انسحابها لم تبق على شيء فبعد ان احرقت الزرع والضرع ساقت
امامها المواشي ولم يبق للاهلين غير الزؤان يقتاتون به فيتنازعون

في سبيل القليل منه ليسدون به رمقهم ؛ وبالرغم عن هذا المحل المريع وفصل الشتاء القريب اضطر الامير ان يسير الى الامام فقطع بلاده المخربة التي مر فيها سابقاً وقد كانت في خصب غزير ... وهو الذي كان يحارب في الماضي لاجل الفتح تراه يحارب اليوم لاجل القوت وقد استفزت شجاعته اعمال الروم البربرية ومر في البلدان التي كانت تستقبله بهتاف النصر فوجدها خربة ينعق في اطلالها البوم

ولكنه كان يشعر من وقت لآخر بالحمى تتأكل احشاءه فيضطر رحاله ان يحملوه في منصة على اكتافهم ويتبعهم جواده قتال ، وقد استولت عليه الكآبة والحزن ؛ ومع ذلك فلم يشعر ابداً بحمية كالتي كانت تقود خطواته

وقد استعان بجميع الاهلين وبالاسرى البيزنطيين لتعمير الحصون والقلاع التي دكها العدو . ولكنه اضطر اخيراً ان يوقف مسيره لحلول فصل الشتاء واخذ ينتظر الربيع الذي جاء سريعاً فى تلك السنة ، وازدهرت معها صحة الامير و كانت الحصون والقلاع قد رجعت الي سابق عهدها من المناعة وتمت الاحتفالات بزواج احد بنات سيف الدولة على ابي تغلب ابن ناصر شقيقه

ولكن القدر المحتوم اراد الا يترك لهذا الرجل العظيم ساعة راحة وطمأنينة فبينما كان يستعد للخروج على بيزنطة جاءه

خبر قائده ندجا الخائن الذي كانت نفسه قد غرقت في بحيرة النذالة والدناءة . ففي اليوم الثالث للاعياد التي اقيمت لزواج الاميرة ، وبينما كان المدعوون منهمكون بالرقص والغناء وتماطي المدام قام ندجا من بين الحضور وقد لعبت برأسه الخمرة وسقطت عمامته عن رأسه فحمل كأساً ونظر الى عبيد وقال :

اشرب نخب شجاعتك ايها العم الجميل انت الذي لاشبيه لك غير الكلب الخائف من ضرب السوط ، انت الذي لم تعرف ان تخلع نير اميالك انت العبد الرقيق الزنيم لسيف الدولة

قال ندجا ذلك وارتمى على الطنافس لايعي . فلم يجب عبيد بكلمة وهو يعرف محبة الامير لهذا القائد العقوق الذي غفر له خيانته

ولكن كبدجا وهو احد المقربين وقائد الحرس الخاص انتفض غضباً وصرخ قائلا : هكذا نرى الخائن اليوم يهين القائد الامين !

ونظر الى ندجا وقال : جاء اليوم الذي تفتدى به بدمك نذالتك ايها الخائن ، ثم شهر خنجره وضربه به ضربات متوالية ذهبت بحياته ، فوقع على الارض يتخبط بدمائه وقد تدفقت من صدره كأنها ورود بين الاشواك . واستولى على الحضور الزعر الشديد فاداروا بانظارهم عن هذا المشهد الرهيب ناظرين للامير الذي كان جالساً في وسط القاعة والذي شهد المأساة

بحزن و كآبة ، واشار الى سيافه مبارك بالاقتراب منه مشيراً الى كبدجا قاتل ندجا وقال :

اقطع رأس هذا الرجل فانه فعل فعلته دون استشارتي وليس لاحد هنا غيري ان يجازي البغاة

فساق مبارك كبدجا المسكين وخرج به لتنفيذ الحكم . وقام الامير بعد ذلك فاقترب من جثة قائده الخائن الذي احبه كثيراً وخاطبه هكذا : انت يا ندجا فتحت لي ابواب الشقاء والذل ولولاك لما عرفت كل هذه التعاسات التي نزلت علي كما تنزل الطيور السوداء على اجداث القتلى ،ومع ذلك فقد غفرت لك ، ولكنك لم تقدر قدر حلم الملوك فجئت الى داري تهين اشد الناس امانة لي انت الخائن...ومع ذلك وقد اصبحت الان في عالم الاموات فليرحمك الرحمن الرحيم ويشفق عليك

قال هذا وضرب بقبضة يده على قلبه واستطرد هاتفاً : ايها الناس ، انكم تتعبون دوماً الذين يحبونكم ولا يرى المعروف دوماً جزاء له غير نكران الجميل '

وامر في اليوم الثانى ان تقام احتفالات كبيرة لتشييع جثتي ندجا و كبدجا الى مقرهما الاخير وهكذا قرن بعطفه وحلمه الخائن والامين معاً وسار في موكبهما حزيناً حتى تواريا في التراب .وبعد ايام من ذلك جاءت الرسل تنبأ بقدوم سفير من بيزنطة ارسله نيكوفورس ليفتدى الاسرى البيزنطيين

الذين بقوا بقبضة الامير

فامر سيف حينئذ باقامة الاحتفالات والاعياد ، وتواعد باللقاء مع البيزنطيين في مدينة شمشات على ضفاف الفرات حيث ضرب فسطاط سيف الدولة الارجواني المزركش بالذهب واصطفت امامه فرق الحرس والديلميين حاملة رماحها اللماعة ودروعها المصفحة ، وكان الامير قد حمل جميع كنوزه الى فسطاطه واقام في وسطه عرشه الذي جاء به من عاصمته ، فقد اراد ان يظهر امام اعدائه بعظمته وبذخه السالفين كيما يعلموا ان اكتساحهم لبلاده لم يفقره ويجعله طريداً شريداً كما كان يردده البيزنطيون في كل صقع وناد

وعندما وصل السفير قسطنطين ماليينوس الى شمشات وجد سيف الدولة جالساً على عرشه الذهبي المرصع بالحجارة الكريمة وقد احاط به رجاله الامراء يرتدون الاطلس والمخمل الغالبين ، فبهرت انظاره مما رآه واظهر تعجبه وهو يقول لرجال معيته ـ ظننت انني سارى هنا رجلاً تعساً فقيراً معدماً فاذا بي امام مليك يضاهي باسيليوس بعظمته ورفعة شأنه وكثرة كنوزه .

وبدأت في اليوم الثاني لوصول السفير حفلات الصيد في النهار والرقص والولائم في المساء . وبدأت ايضاً المفاوضات وقد كان الاسرى البيزنطيون عديدون جداً ولكن اسرى

العرب عند هؤلاء كانوا اكثر عدداً ايضاً فاضطر الامير ان يشتري بالمال الباقي من اسراه بعد تبادل الاولين ؛ لان نفسه الابية ابت ان يبقى في بلاد البيزنطيين رجل واحد من رجاله فدفع فدية كل اسير مائة وسبعين ديناراً ذهبياً وهو مبلغ عظيم لم يسبق له مثيل في شراء الاسرى قبل ذلك اليوم ففرغت من جراء ذلك خزائن الامير واضطر فوق ذلك ان يرهن عند اليهود جواهره الخاصة ودرعه الذهبي العجيب الذى صاغه عشرة من اكبر الصاغة وظلوا عشر سنوات في اصطناعه

وهكذا رجع السفير الى بلاده وامامه قافلة لااول لها ولا آخر تحمل ذهب سيف الدولة . ولما اختفت مؤخرة البرنطيين عن جمجشات تقدم عبيد من سيده وقال له — لم يبق لديك شيئاً يامولاي فقد فرغت الخزائن ورهنت الجواهر . فابتسم سيف الدولة ابتسامة تشف عن الرضى والارتياح وقال لقائده الامين لو دفعت اموال الارض فدية عن رجالي كان ذلك شيئاً تافهاً فاعلم ياعبيد ياخادمي الصادق ان كنوز العالم ليست شيئا يذكر عندي في سبيل تحرير رجالي من ربقة العبودية

وكانت افراح واعياد عند اسرى العرب عندما رأوا انفسهم احراراً بعد الاستعباد فساروا نحو بلادهم بقلوب طائرة خفيفة يتغنون بالاغاني الجميلة على شرف اميرهم المفلى وعندما وطئوا ارض بلادهم عفروا وجوههم بالتراب وقبلوا الارض

التي داسوها ، واخذ الاهلون يستقبلونهم بالاناشيد ويرمون عليهم طاقات الزهور . وعندما وصلوا الى شمشات استقبلهم الامير بفرح لا مزيد عليه واعطى لكل منهم يده يقبلها و كان الكثيرون منهم يبكون وتتساقط عبراتهم على يده المنبسطة لمصافحتهم

وعند ذاك نظر الامير الى الجماهير الفرحة المحتشدة امام فسطاطه العظيم وقال لعبيد مشيراً الى الاسرى العرب — اية كنوز توازي هذا الكنز يا صديقي الحبيب

ولكن ... واسفاه ! كان ذلك المشهد الجميل آخر مشاهد السعادة فقد كان الغد بمصائبه ينتظر بفروغ صبر

٢٥

موت الامير ذو القلب العظيم

ايها الرحل قد وجدت مـا يجده باقي الرحال
اي الموت « كلمة عربية »

وعاد الامير في طريقه الى حلب تتبعه فرقه والاسرى الذين افتداهم من البيزنطيين ، والذين كانوا يسيرون ورائه متغنين بامجاده وهم يطيرون فرحاً وحبوراً ، و كان الاهلون يتقبلونهم في كل مكان بالتعظيم والاجلال على اصوات الاعواد ورجيج

الطبول وهم يحملون الهدايا .. ولكنهم ما كانوا يرون اميرهم كما اعتادوا رؤيته ـ على رأس الفرق ممتطياً جواده « قتال » بنشاط وقوة ، بل كان الرجال يحملونه في هودج وقد بانت عليه دلائل الهزال والتعب وانتابته حمى محرقه وضاق صدره وتشنجت اعصابه واصابه هذيان جعله يتلفظ اكثر الاحيان بكلمات غير معقولة

واسودت الوجوه والقلوب من حوله والقوم يشعرون بانه سوف لا يقوى طويلا على كل هذه الاوجاع ، فقد كان مصاباً في سويداء قلبه الذي كثرت جراحه وكلومه من جراء النوائب التي نزلت به ، فحطمته قطعا قطعاً ابتداء من وفاة حبيبته بيلتنا واكتساح عاصمته وخيانة نجاعز الناس عليه

وفي كل يوم كان مرض الامير يزداد ويضئل نور نجمه السعيد وهو الذي تألق ساطعاً مدة سنوات في سماء الاسلام وكان الجميع يرون ذلك النجم ينحني في الافق مرتجفاً ويكاد يلفظ ضياءه الاخير وهو الذي انار شعاعه العالمين

وعندما وصلت القافلة بجيوشها على بضعة اميال من حلب شعر الامير بقوته تعود اليه وهدأت سورة الحمى في جسمه كأن اقترابه من مدينته العزيزة كان بلسما لفؤاده ، فجمع قواده واراد ان يدخل عاصمته معتزاً كما كان يدخلها في سابق رجوعاته من انتصاراته . ولكن القدر المحتوم ابى عليه

ذلك وكان هنالك خطب جديد ينتظره، وقد كتب له بعد موت بيلتذا الايذوق حلاوة دون مرارة، فعندما وصل الى ابواب المدينة جاءه رجل فاخبره بالحوادث التي جرت اثناء غيابه

اسمع اذاً ايها القارئ ما جرى فيدلك ذلك كم هم انذال وجبناء اولئك الذين يرون الاسد جريحاً فيستنسرون

عندما ترك سيف الدولة حلب في الربيع الماضي اقام وكيلاً عنه كعادته قرقولاه الحكيم ولكن نيوفورس البيزنطي عندما عرف ان الامير سيكون بعيداً مدة اشهر عن عاصمته دبر خيانة جديدة في حلب الشهباء فدفع الاموال الطائلة واشترى بها امير البادية عامل سيف الدولة والقائد المعروف ابن القواصي فاستطاع الخائنان ذات ليلة ان يضعا ايديهما على خزائن سيف الدولة وجردا فرقاً من المتطوعين المأجورين دفعا مرتباتهم من المال الذي سرقاه وهاجما المدينة التي كان لهما فيها انصار ومن جملتهم الشيخ ديزبار الذي فتح لهما باب اليهود بعد ان قتل غدراً القائد بشاره الذي كان يحرسه فاكتسح المتطوعون المدينة والتجأ وكيل الامير قرقولاه الحكيم مع بعض الانصار الامناء الى القلعة

واخذ امير البادية رزق الله النسيمي وديزبار وابن القواصي ورجالهم ينهبون القصور والمساجد، وبعد ان ملأوا خزائنهم من الذهب والمكاسب ابتدأوا باقامة الحفلات ونسوا في احضان

الجيلات كل الاشجان ظناً منهم ان الامر قد استتب لهم تماماً ولم يحسبوا حساباً لقرقولاه الحكيم ورجاله الامناء الملتجئين الى القلعة

وذات صباح خرج هؤلاء من القلعة فجأة وهاجموا الخونة الادنياء فاعملوا برقاب رجالهم السيف وانتصروا عليهم انتصاراً باهراً فقتل رزق الله النسيمي في المعركة وفر الآخرون فطاردهم قرقولاه الى خارج الاسوار وقد عزم ان ينقذ البلاد من شرهم وتوغل في الصحراء ورائهم حتى قطع صلة الوصل بينه وبين المدينة فانتهز ديزبار هذه المناسبة وادار بوجهه نحو قرقولاه فاسره وكسر رجاله وجاء به الى القلعة التي كان متحصناً فيها وسجنه في اعماق مغائرها

فلما سمع سيف الدولة هذه الحكاية دخل في غضب عظيم وامر رجاله بالاستعداد للهجوم على المدينة ولكن ديزبار عند ما عرف بقدوم الامير اعتراه خوف كبير وفر مع رجاله من باب انطاكية فدخل سيف الدولة الى حلب وبعد ان انقذ عامله الامين قرقولاه من سجنه جمع رجاله وسار في ذلك الليل يقتفي اثر الخونة ، فاستطاع من اللحاق بهم وضرب رؤوسهم في عرض الصحراء ورجع الى مدينته يحمل في سنان رمحه رأس ديزبار الخائن ، فاستقبله الاهلون بالاهازيج والهتاف ، ولما استقر له المقام في قصره شعر بالمرض يراجعه فاستدعى النجاشي الحلي لمداواته وكان داؤه يزداد خطراً يوماً عن يوم حتى اعتراه الوهن

والهزال ولم يعد يقوى على الكلام ، فعرف بذلك نيكوفورس الذي كان ينتظر اخبار الامير بفروغ صبر ، فجمع رجاله ورجع الى الحرب

وكان البيزنطيون قد اكتسحوا كليكيا ، فحشدوا رجالهم على حدودها ودخلوا الى سوريا قاتلين حارقين ناهبين دون شفقة ولا رحمة وقد كسروا قوات سيف الدولة في القلاع والحصون

وعرف الامير بذلك ولكنه بدلا من ان يستعد للدفاع بقي دون حراك لان روحه البطاشة سابقاً ابتدأت تتلاشى وقد انتهز رجاله فرصة مرضه فاستيقظت اطماعهم وازدادت جبانتهم فاخذوا يقتسمون الغنيمة قبل موت مولاهم

وهكذا شأن الثعالب عندما يكون الاسد محتضراً

وكان سيف الدولة يشعر بان يومه الاخير قد دنا ولم يبق له سوى الاستعداد لملاقاة الموت الرهيب ، واحس بان سطوته قد تلاشت كما تتلاشى شعاعات الشمس عند المساء وشعر بالحقيقة المخيفة وكيف انه يموت بيلتذا مات كوكبه ، وقد خيل له انها حملت في ابتسامتها الاخيرة سعادة اميرها الجميل العذب

ومع ذلك فلم يفقد سيف الدولة كل امله ، فانه كان في الماضي يجد في اشد ساعات التعاسة والشقاء نوراً يسطع فجأة

ويمضي، طريقه فيتغلب على اعدائه ويحمل بين طيات راياته النصر والظفر . واستنشط ذات صباح فامر فرقه بالمسير ومشى على رأسهم يحمله رجاله فوق الاكتاف ، وتوغل في الصحراء الشاسعة ذات النسيم الحار ، حتى طلعت طلائع جيشه فجأة على البيزنطيين ، واشتبك معهم بعركة شديدة فاستلم بالرغم عن آلامه قيادة رجاله واخذ يدير حركاتهم بحذاقة نادرة المثال ، وكأن وجوده معهم قد ضاعف قواهم فتفادوا في القتال حتى نالوا من اعدائهم كل مآربهم وكانت موقعة سيف الدولة الاخيرة انتصاراً اخيراً . ففتح الفرسان الحلبيون بقيادة عبيد ثغرة في جبهة البيزنطيين وكان ذلك عند الصباح العذب ، وقد شاهد الامير من اعالي هودجه رجال العدو يفرون في الصحراء تائهين هائمين على وجوههم كأنهم خيالات سوداء في وسط الرمال الذهبية

وكان ذلك في الخيزران على ضفاف العاصي على بعد بضعة ساعات من حلب . ومع ان الامير كان في منتهى الحبور لنيله هذا الانتصار الكبير فانه كان يشعر بقواه تنحط وقلبه يخفق خفقاناً مخيفاً فاستدعى عبيد وقال له وهو يبتسم ابتسامة حزينة

— ان هذا الانتصار يا صديقي الامين هو آخر زهرة يهديها الي القدر فاختطفتها يانعة في هذا الصباح وستذبل عند المساء ، فلنترك الخيزران حالا الى حلب

قال عبيد : ولكن ياسيدي ومولاي لماذا كل هذه الافكار السوداء . فهز الامير رأسه وقال : تغيب اليوم ياعبيد اجمل شموس الصيف ويتبعها الليل بظلامه الحالك ، واني اشعر بان ليلي الدائم قد اقبل واحس برادائه الثقيل على كتفي ، فلنسافر حالا ياصديقي فاني اريد ان اموت في عاصمتي

فاحنى عبيد رأسه وسقطت على خديه دمعتين كبيرتين . وبعد ساعة من ذلك سارت القافلة بسكوت تام نحو حلب البيضاء فوصلتها عند منتصف النهار فامر الامير قواده وعماله وعظماء دولته بالاجتماع في قاعة العرش حيث سيفتح ديوانه

ودخل الى غرفه فارتدى افخر ملابسه وتعمم عمامته المزركشة بالحجارة الكريمة والموشاة بالميمياء وسار الى قاعة العرش حيث كان قد اجتمع رجال المملكة ، وفي مقدمتهم عبيد وقرقولاه ومبارك وتقي الدين وقد بانت على ملامحهم دلائل الحزن والكآبة وشعروا بان السعادة كادت تفارقهم

وجلس سيف الدولة على عرشه المصنوع من خشب الابنوس والقواعد الذهبية ولم يره الناس في ايام صبوته اكثر جمالا مما ظهر حينئذ فالموت المقترب منه اعطاه جلالا لم يعرفه بشري قبله وقد بانت على وجهه صبوة ناضرة اخذت بمجامع القلوب

وساد سكوت ثقيل على الجميع فوقفوا كأن على رؤوسهم الطير ... وتكلم الامير فقال بصوت جهوري عذب :

ايها الرفاق ذوي القلوب الامينة ، ان عزرائل يستدعيني اليه ومن واجبي ان اجيب طلبه ، وسأموت كما حييت عزيزاً كبيراً ، فالموت صديق قديم لي احبني واحببته وشعرت به في المعارك الشديدة يقترب مني ويحاول ان يضع على جبيني قبلاته الرهيبة ، فانا لا اخافه ولا اخشاه واستقبله والابتسامة على فمي

قال هذا ونظر الى رجاله فرآهم باجمعهم ينتحبون ويذرفون العبرات لان قلوبهم كادت تنشق من الحزن والاسى ، واستطرد قائلاً : ليس بينكم غير القليل من الذين مشوا بركابي الى المواقع والغزوات واما الباقون فمن الذين لم تحرق وجوههم نيران الصحراء ولم تستمطر دماءهم ظبا السيوف . فالذين كانوا رفقائي يوم الوغى يسيرون حول نعشي منكسي الرؤوس والرماح ، فاريد ان اسير الى مرقدي الاخير ومن حولي الابطال ، واذا رأيتموني الان حزيناً فذلك لا رهبة من الموت بل تأسفاً على فراقكم ، انتم الامناء الاحباء الذين رفعت بهم الى اعلى ذروات الشرف ، فمنكم من اكتسح الارض بشجاعته ومن سكر من خمرة الانتصار ، فلقد كنا سعداء وكانت قصورنا ترقص طرباً لهتافنا العظيم وضافتها السعادة زمناً طويلاً ، ... لقد كان عذباً ولذيذاً الخمر الذي ذقناه في كأس الحياة فلا تبكوا يارفاقي ولا تأسفوا اذا كانت الثمالة التي نشربها اليوم مرة كالحنظل فالقدر يقودنا وما كتب لنا لا مرد له وساعيد اليوم الى الرحمن السيف الذي

وضعه في يدي لحماية الاسلام ودينه الحنيف، وقد جاء يومي يوم الراحة والظلام

قال هذا وسكت هنيهة ونظر بعد ذلك الى عبيد وقال له

قل لولدي في ميافارقين عندما تذهب اليه بانني تركت له الملك متمنياً ان يكون خير خلف لسيف الدولة، قل له ان يحافظ بحياته على تقاليد اجداده وليكن في السعادة والتعاسة شجاعاً كريماً متعبداً لربه ... قل له ان الثروة والعظمة والجاه في القلب لا في المال ولا في الكنوز وان ليس في العالم دنائة تعادل الخيانة والجبانة وهما زهرتان سوداوان تعيشان في المفوتة والنتانة ... قل له ان يضحي الحياة في سبيل استقلال بلاده وليكن دوماً نبيلًا وطاهراً

فركع عبيد على قدمي الامير واخذ طرف ردائه وقبله هاتفاً : ساقول له ذلك يامولاي !!

وكانت عينا سيف الدولة قد اتسعتا وامتلأتا نوراً وبانت في لحظاتها امارات السعادة الابدية، وانتصب واقفاً فرآه العظماء يستند بابهة وجلال على قبضة سيفه واستطرد فقال :

ـ هل تذكرون ايها الرفاق بيلتذا مليكتكم المائتة فقد كانت جميلة وعذبة كما هي الزهرة السماوية في جنة الخلود فعندما تنفتح امامي ابواب الفردوس ساراها بين الحوريات فترجع لي سعادتي المفقودة

وابتسم عند ذاك ابتسامة فاح منها عبير الغرام العظيم الكامن في قلبه ونظر الى العلاء وقال مخاطباً حبيبته انت تنتظرينني يا بيلتذا منذ زمن بعيد وقد ابطئت عليك فهاانا ذا

وكأنه اراد ان يتحكم في الموت القريب منه فصرخ قائلا :

تستطيع يا عذرائيل الظهور الان فانا بانتظارك

وكان ذلك آخر كلامه

وظهر في القاعة حينئذ شعاع عظيم سطع على ظهر الامير فاخترق قلبه، ووقع على عرشه لا روح فيه

فتصاعدت من الصدور زفرات حرى كأنها امواج البحر تتلاطم على الشاطيء؛ ومشى النجاشي الحلبي الى الامير فجس نبضه وقال ـ سوف لا يستيقظ سيف الدولة بعد اليوم

هكذا مات ابو الحسن صاحب حلب واعظم امراء الاسلام

٢٦

مرت اللذة كما يمر هذيان الحمى فلم تترك من اثر لها على الرمال «قول عربي مأثور»

وصعد المؤذنون الى المآذن والشيوخ الى المنابر يعلنون للامة موت سيف الدولة، فلبس الاهلون الحداد وضربوا الاكف ولطموا الخدود وانتحبوا على اميرهم وبكوا مدراراً وصلوا

فى الجوامع طالبين الى الرحمن ان يغدق علية شآبيب نعمه

وقد تمشت وانسابت في المدينة روح حزينة شجية فهدأت الاعمال واقفلت المخازن واطفأت الانوار وعاشت حلب في الليل بظلمة حالكة. وبعد ان حنط المحنطون جثة الامير رفعوها فوق سرير من الذهب الخالص كانوا قد نصبوه في قاعة العرش في نفس المكان الذي مات فيه وقد البسوه افخر ثيابه وزينوه بكل جواهره ولآلئه واحاطوه بها، ووضعوا في نعشه اسلحته النفيسة من خنجره المفضض الى سيفه ذى القبضة الذهبية والنصل المنير الى درعه اللماع الى رمحه الطويل

وازدادت هيئته نبالة في جلال الموت فانارت المقام وقد وضع رأسه على وسادة من الطين اصطنعها امناؤه من الغبار الذي نزعوه عن اثوابه في كل مرة كان يرجع من المعارك منتصراً وهو الذي اراد ان يلقي رأسه في نومه الاخير على هذه الوسادة المملوءة من الظفر والمجد

واحاط بجثته من كل جانب رجال الدولة وعظماؤها وجلست على قواعد سريره الباكيات المنتحبات يندبن بطل الاسلام ويذرفن الدموع عليه

وسمح وزير الملك للاهلين بالمرور امام الجثة فكنت تراهم زرافات زرافات يحنون الرأس امام النعش العظيم وتبان على وجوههم امارات الاسى والاسف العميق، وقد جاءوا من كل جهة

وجانب من الكبار للصغار ومن الاغنياء الى الفقراء والمعوزين

وكان بخيل لبعضهم عند رؤية الامير بذلك الجمال والجلال انه على وشك النهوض ثانية ليسير على رأس الطلائع الى الحرب والقتال . وكانت العادة تقضي ان تبقى الجثة احد عشر يوماً واحدى عشرة ليلة معروضة في قاعة العرش ، ولكن الاخبار التي وصلت من الولايات كانت تدل على ان الحالة تزداد حراجة فالعدو البيزنطي الذي عرف بموت الامير ازداد قحة واسرع في مسيره نحو حلب ولم يبق له غير ايام قليلة حتى يبلغ المدينة

فجمع قرقولاه الحكيم الذي استلم وكالة الملك لبينما ينادي عبيد بابن الامير ابو المعالي الشريف ملكاً على البلاد ، جمع العظماء والقواد وشرح لهم الحالة فاقروا باجمعهم الابتداء قبل كل شيء باخفاء جثة سيف الدولة كي لايدنسها العدو المهاجم وذلك بحملها الي تربة الاجداد من بني حمدان في ميافارقين حيث كان ابو المعالي حاكماً وهناك ينام سيف الدولة بسلام تحت الحجر الابيض حيث نقش الفنانون الذكرى التالية :

« تلاشت اللذة والنشوة كما يتلاشى هذيان الحمى

كم من الاعمال العظيمه رأتها عيناي

وكم من الشهرة بلغت والى ذروة العلى صمدت

وكم من العواصم افتتحت ومن القصور ارتجت تحت نعال جوادي

وكم من المدن حرقت ومن الممالك ضربت فانتقمت لرجالي وكنت كالصاعقة

وكم من الامراء قدت في اذناب خيولي

وكم من الانظمة امليت على العالم

والان، تلاشت نشوى لذاتي دون ان تترك اثراً لها على الرمال

فالموت فاجأني دون ان استطيع مقاومة

ودون ان يستطع فرساني وجنودي انقاذي منه

فاسمع ايها الزائر الي ، الكلمات التي لم تتلفظ بها شفتاي وانا في قيد الحياة

احفظ نفسك ، وتلذذ من الحياة في هدوئها وسلامها وجمالها

فغداً تبقى مثلي جثة تحت التراب

وغداً تجيب الارض عندما تسمع اهليك ينادونك فتقول لهم مات وهو الان في حضني ينام

ولم ترجع الحفرة احداً من الذين ضمتهم بين جوانبها الى الابد »

وكان خطر قدوم العدو يزداد ساعة فساعة ، فاضطر القوم ان يختصروا الاحتفالات المعتادة في مثل هذه الحالة ، واحملوا جثة الامير فوق سرير من العاج له مظلة من الارجوان وساروا به ومن حوله مائتا حارس يحرسونه ويجيء من بعدهم الدراويش المنتحبين ومن ثم قرقولاه وعبيد وبشاره والقواد والزعماء

والوجهاء والخدم والعبيد والوف من الناس باكين منتحبين يعفرون وجوههم بالتراب ويلطمون الخدود

فساروا من باب انطاكية ومروا بين الحدائق المعطرة حيث انحنت الاغصان احتراماً واجلالاً للموكب الرهيب ، ودخلوا اخيراً في الصحراء الممتدة الى ما لا نهاية له في الافق البعيد ، وابتدأت الجماهير تنسحب رويداً رويداً وهي آسفة لفراق سيدها

واضطر اخيراً قرقولاه نفسه ان يرجع للمدينة تاركاً جثة مولاه تسير بدونه . ومشت القافلة بهدوء وسكون في تلك الصحراء الصامتة المخيفة فجاء الغسق واحمرت الرمال فصارت كأنها لهيب من نار ونزل على الارض ستار اسود كثيف كأن الطبيعة تلبس الحداد على اجمل واشجع فتيانها

ومشت القافلة ، مشت طويلاً وهي تائهة في بحر الرمال فكانت تبان صغيرة وحقيرة ومعدمة بين تلك القفار الشاسعة

ولم تقف ، طيلة الليل والنهار ، وكانت الصحراء تنتحب حولها باكية على اميرها واخيراً جاء صباح الليل التالي ونزلت اشعة الشمس على البسيطة كأنها ابتسامة النساء

وحينئذ رأى الموكب في الافق جماهير تسير للقياهم ورأوا الدروع اللماعة وسمعوا خشخشة السلاح فاوقف عبيد الموكب لانه عرف في القادمين رجال بيزنطة ، وصرخ برجاله يقول :

هذا هو العدو فاذا قتلنا الآن نموت بشرف في ركاب الامير ومشى البيزنطيون بسرعة فشهر عبيد سيفه وصف رجاله وانتظر . انما لم تظهر على العدو الذي اقترب كثيراً من الموكب دلائل الغدر والخيانة

لربما افتكر انه على مقربة من قافلة تجارية

وكان على رأس البيزنطيين فتى في ريعان الصبى ونضارة الجمال تلوح على ملامحه دلائل النسل والشرف ، فهو ولا شك احد عظماء بيزنطة وقد تاه مع حاشيته في الصحراء

انما وقد اقترب رجال الروم فجفل عبيد حيث رأى عدوه اللدود بطل جبل الموت جان تيزميس امامه

نظر هذا الاخير الى عبيد وقال له : من انتم والى اين تذهبون ؟ . قال عبيد - نحن ابناء الشهباء نحمل الى هذه الصحراء جثة سيدها الامير سيف الدولة

فاحنى جان تيزميس رأسه واقترب من السرير العاجي ذي المظلة الارجوانية وحدق طويلاً بوجه سيد الحرب وامير البادية وبعد ان رفع سيفه محيياً الجثة الشريفة قال لقد كان جميلا شجاعاً ، وعدواً شريفاً

قال عبيد : كان اشرف الامراء وانبلهم

قال القائد البيزنطي : لتكن رحمة الله عليه

وادار حينئذ بانظاره نحو رجاله وقال لهم

ايها الفرسان سيروا بركاب سيف الدولة واسهروا على راحته حتى مقره الاخير

وعندئذ لعب الفجر بوجه الامير فخيل للناظرين اليه انه يبعث جديدا ويبتسم مفتخراً بهذا الشرف الاثيل الذي يناله في يومه الاخير من اعدائه

وسارت القافلة في الرمال وظل الدراويش في صلاتهم وتقشفاتهم . وكانت الشمس ترسل اشعتها من بين السجائف على وجه الامير كأنها قبلات من ذهب

وكان الحمداني البطل يسير في تلك البطاح نحو النسيان ورمال الصحراء من وراء موكبه تمحو اثار اقدام الفرسان لافظة تنهداتها العميقة الدائمة

هكذا كانت حياة سيف الدولة وهكذا كان موت امير حلب واعظم فرسان الاسلام

والان المجد والشكر للذى يحكم في المنظور والغير المنظور الله الحى الازلى الوجود

نوادر جحا الكبرى

ترجمها من التركية

وأضاف اليها كثيراً مما عثر عليه في التركية والعربية

حامد بك شريف

---

٤٢٧ نادرة

٥٩ صورة

٢٧٢ صفحة

ثمنه ٥ قروش مصرية

يباع بالمكتبة الاهلية - بشارع البوسطة * بيروت

كشكول جمال

كتاب جديد ، جمع فأوعى

للاديب فيه حاجة

وللفكه والحكيم

وربة الدار

فهو خلاصة ماحوت كتب الادب: من احاديث مأثورة ، وكلمات طيبة ، مأخوذة من الحكماء ، واساطين الادب الى غير هذا من الافانين الطيبة المستحدثة في نوعها ، مما لم تطرف عليه العين ، ولم تصب الاذن بسمعه

وهو في ثلاثة اجزاء صفحاتها كلها ٦٤٠

وثمنها ١٥ قرشاً مصرياً

يباع بالمكتبة الاهلية - بشارع البوسطة * بيروت